يا أبا ذر

آية الله العظمى
السيد صادق الحسيني الشيرازي
دام ظله الوارف



دار العلوم

بسم الله الرحمن الرحیم

يا أبا ذر

كاتب:

صادق حسينى شيرازى

نشرت فى الطباعة:

صادق حسينى شيرازى

رقمى الناشر:

مركز القائمیۂ باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

يا أبا ذر

اشارة

اسم الكتاب: ياأباذر

المؤلف: حسينى شيرازى، صادق

الموضوع: وصاياى حضر

اللغة: عربى

عدد المجلدات: ۱

الناشر: سلسله

مكان الطبع: قم

تاريخ الطبع: ۱۴۲۸

الطبعة: دوم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الكتاب الـذى بين يـديك عزيزى القارئ عبارة عن مجموعـة من سلسـلة دروس الأخلاق الأسـبوعيّة التى كان سـماحة المرجع الدينى الكبير آية الله العظمى السيد صادق الحسينى الشيرازى دام ظله قد ألقاها على طلّاب العلوم الدينية فى مدينة قم المقدّسة.

اختصّت هذه المجموعة بشـرح نصوص مباركة من وصـيّة الرسول الأعظم صـلّى الله عليه وآله لصاحبه الجليل أبى ذر الغفارى رضوان الله تعالى عليه.

نأمل أن تشـكّل هـذه الـدروس المباركـة مساهمـة عقائديـة وثقافيـة وتربوية جادّة فى توضـيح ملامح الهداية والاسـتقامة التى يفترض بالإنسان كإنسان أن يقتفى أثرها، لتُجنِّبه السـقوط فى العديـد من المطبّات، كما تمكّنه من اقتحام العقبات الصـعبة، فيهتـدى إلى حيث الإيمان، ويعود إلى فطرته السليمة متترّساً بالثقافة المحمدية الأصيلة، ويكتسب القدرة على تمحيص الغثّ من السمين من بين ما يبثّه أو يعلن عنه الإعلام الهدّام بكلّ أشكاله.

ونتوجّه بالشـكر الجزيل والامتنان الفائق لكلّ الأصدقاء والأعزّاء الذين ساهموا فى إنجاز مشروع هذا الكتاب القيّم وإخراجه إلى النور. لاسيّما الأسـتاذ على ضـميرى الذى قام بترجمة النص من الفارسـية، والسـيد خلدون العسـكرى الذى نهض بمهمة التحقيق، والأخ عبد الرضا افتخارى الذى قام بمراجعة النص وتقويمه.

ومن الله التوفيق

تمهيد

تمهيد

على امتداد حياته المليئة بالبركة والرحمة، زوّد الرسول الأكرم صـلى الله عليه وآله بعض أصـحابه بمواعظ ووصايا، كان كلّ منها بحراً من الحكمة والموعظة الحسنة.

إحدى هذه المواعظ هى وصيّة النبىّ صلوات الله عليه وآله لصاحبه الجليل أبى ذر الغفارى رضى الله عنه الزاخرة بالمضامين الأخلاقية الرفيعة والبنّاءة.

سند الرواية

سند الرواية

تمتاز هـذه الوصـية بأمور، منها أنّها من الوصايا الطوال، ومنها أنّها وصـية زاخرة بالمضامين الرفيعة؛ الأمر الذى يُعدّ بحدّ ذاته دليلًا على صـدورها عن النبىّ الأـعظم صـلى الله عليه وآله، مضافـاً إلى أنّهـا من حيث السـند تعـدّ من النصوص المعتبرة، حيث رواها العديـد من أعاظم العلماء:

منهم الشـيخ الطبرسـى فى كتابه الشـهير (مكارم الأخلاق). فمع أنّ الروايات التى يرويها فى هـذا الكتاب مرسـلة فى الغالب ومـذكورة بحذف السند، ولكنّه رحمه الله نقل هذه الرواية بعدّة أسانيد.

كمـا نقـل الوصـيّة الأمير الزاهـد ورّام بن أبى فراس فى كتابه المعروف ب (مجموعـة ورّام). علماً أنّ هـذا العالم الجليل يُعـدّ ثقـةً عند الفقهـاء، وأقواله وأفعـاله معتبرة لـديهم، حتى أنّ العديـد من أعاظم الشـيعة اعتبروا سـيرته حجّـة، فى بعض الموارد التى لم تبلغهم فيها رواية عن المعصوم.

فمثلاًـ جرت سـيرة المتشـرّعة على وضـع فصّ عقيـق فى فم الميّت، مع أنّه لم ترد فى كتب الأحـاديث روايـة على ذلـك، والـدليل أنّ صـاحب «الحـدائق» وصاحب «المسـتدرك» لم يـذكرا شـيئاً عن هـذه المسألـة. ولكن مع ذلك نلاحظ أنّ صاحب «الجواهر» وصاحب «العروة» ذكرا هذه المسألة فى كتابيهما «جواهر الكلام» و «العروة الوثقى» باعتبارها مسألة مستحبّة.

ونحن نعلم أنّ اسـتحباب عمـل مـا لابـدّ أن يكون مسـنداً إلى المعصوم سـلام الله عليه قولاًـ أو عملًا أو تقريراً، ولكن فيما يخصّ هـذه المسألة، فإنّ السند الوحيد هو تصريح السيد ابن طاووس الذى قال فيه:

«وكان جدّى ورّام بن أبى فراس قدّس الله روحه، وهو ممن يُقتدى بفعله، قد أوصى أن يجعل فى فمه بعد وفاته فصّ عقيق عليه أسماء أئمّته صـلوات الله عليهم. وقد تقبّل الفقهاء التالون له استحباب هذا العمل دون أن يصرّحوا بأن لا دليل لهم عليه، وذلك لأنّ نقل ورّام بمثابة الدليل والحجّة لديهم».

كما قام الفقهاء بنقل مقاطع من هـذه الوصـية فى كتبهم واسـتدلّوا بها على أنّها من وصـية النبى صـلّى الله عليه وآله لأبى ذرّ؛ فقد أشار المحقّق الحلّى فى كتابه (المعتبر) إلى أجزاء من الوصـيّة النبويّة الشريفة لأبى ذرّ، واستدلّ بها وصرّح بأنّها وصيّة النبىّ صلوات الله عليه وآله. والمحقّق رحمه الله معروف بالدقّة العلميّة الكبيرة ومشهور بجلال المقام ورفعة المنزلة.

أمّا العلّامة الحلّى؛ فقد تطرّق إلى ذكر هذه الوصيّة الشريفة فى مواقع عديدة وكتب متعدّدة.

كما نقل كاشف اللثام فى كتابه المعروف (كشف اللثام) مقتطفات من هذه الوصيّة ونسبها إلى النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

أمّا المحقّق القدير الحاج رضا الهمدانى فقد نسب هذه الوصيّة إلى النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله بعد أن ذكرها فى جملة من كتبه.

كما ذكرها العلّامة المجلسى فى كتابه (عين الحياة) قائلًا: «إنّ هذه الوصيّة من جملة الأخبار المشهورة».

سند الرواية فى مكارم الأخلاق

نقل سند هذه الوصيّة الشيخ الجليل رضى الدين، أبو نصر، الحسن بن الفضل الطبرسى فى كتابه «مكارم الأخلاق» قال:

«يقول مولـى أبى طوّل الله عمره الفضـل بن الحسن: هـذه الأـوراق من وصـيّة رسول الله صـلى الله عليه وآله لأـبى ذر الغفـارى، الـتى

أخبرنى بها الشيخ المفيد أبو الوفاء، عبد الجبار بن عبد الله المغربى الرازى، والشيخ الأجلّ الحسن بن الحسين بن الحسن بن بابويه رحمه الله إجازة، قالا: أملى علينا الشيخ الأجلّ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى، وأخبرنى بذلك الشيخ العالم الإمام الحسين بن الفتح الواعظ الجرجانى فى مشهد الرضا سلام الله عليه، قال: أخبرنا الشيخ أبو جعفر رحمه الله قال: حدّثنا أبو الحسين رجاء بن يحيى العبرتائى الكاتب سنة أربع عشرة وثلاثمائة، وفيها مات، قال: حدّثنا محمد بن الحسن بن شحون، قال: حدّثنى أبو حرب بن أبى الأسود الدؤلى، عن أبى الأسود»....

منزلة أبى ذر

كان أبو ذر رحمه الله رجلًا عارفاً فطناً، كما نلاحظه فى هذه الوصيّة؛ حيث اغتنم فرصة خلوة المسجد للاستفادة من النبىّ صلّى الله عليه وآله. وكان موضع احترام وتقدير النبىّ وأهل بيته الطيّبين الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم. وطبقاً لرأى العلّامة المجلسى رحمه الله الوارد فى كتاب «عين الحياة» فإنّ ما يستفاد من سياق الأخبار والروايات الشريفة كون سلمان المحمّدى وأبى ذر الغفارى والمقداد هم أفضل ثلّة بين أصحاب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، بعد طبقة المعصومين الأربعة عشر (الذين لا يقاس الناس بهم) وبعد ذريّتهم الطاهرة مثل السيّدة زينب الكبرى وأبى الفضل العباس عليهما السلام.

ولكى نعى عظمة منزلة أبى ذر رضوان الله تعالى عليه، علينا التدبّر فى صدر هذه الوصيّة النبويّة الشريفة، حيث جاء فيها:

«أكرم بك يا أبا ذر، إنّك منّا أهل البيت».

ثمّ إنّ النبىّ الأعظم طالما كرّر فى مقاطع وصيّته الشريفة قول: «يا أبا ذر» فقد تكرر حوالى مئة وخمسين مرّة؛ ما يعكس مدى قرب هذا الصحابىّ الجليل من النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

إنّ سيرة هذا الصحابى الكبير جديرة بالمطالعة والبحث والتأمّل، وحقّ أن تكون نموذجاً وقدوة طيّبة.

لقد توصّل أبو ذر إلى هذه المنزلة الرفيعة لأنّه كان يتابع النبىّ الأعظم قولاً وعملًا. ولا شكّ أنّ هذه المتابعة تعدّ إنجازاً صعباً؛ ذلك لأنّ الإنسان فى هذه الحالة سيكون بحاجة إلى توفير عناصر القوّة ليتسنّى له مواجهة شيطانه الداخلى (النفسى) والخارجى (الاجتماعى) روماً فى الانتصار عليهما.

فالفرد إذا ما أراد العمل بوصيّة النبىّ صلى الله عليه وآله هذه ولو ببند واحد منها طبقاً لمستوى وعيه وفهمه وقابليته فإنّ الشيطان سرعان ما ينبرى إلى إعاقته عن ذلك، كما أنّ الشهوات ستبدأ فعلها لتقييده. ولكنّ المؤمن الحذر مَن يطبّق تلكم المواعظ الواردة فى الوصيّة بالتدريج ليواجه الشيطان ونفسه الأمّارة بالسوء، ولا شكّ أنّ هذه المهمّة ممكنة الإنجاز رغم صعوبتها.

إنّنا نعلم أنّ مرتبة العصمة ليست فى متناول الجميع، وأنّها خاصّة بجملة من الأشخاص معلومين، ولكنّ المراتب التالية للعصمة ممكنة للجميع، ولم يجعلها الله تعالى حكراً على أحد.

أجل، ما يميّز الصحابىّ أبا ذر رضوان الله تعالى عليه أنّه كان بمستطاعه لقاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فى أىّ وقت يشاء، أمّا إنسان فترتنا الراهنة فيفتقر إلى هذه الخاصيّة، ولكن ذلك ليس مبرّراً لئلّا يكون كأبى ذر. فالمؤكّد فى الأمر قدرة الفرد المؤمن على الارتقاء إلى هذه المنزلة السامية، فإنّ أبا ذر قضى ردحاً من حياته مشركاً، ومع ذلك بلغ ما بلغ لأنه قرّر لنفسه أن يكون أبا ذر الصحابىّ المؤمن العظيم.

ولنا أن نتساءل عمّا قام به ورّام بن أبى فراس أو والد الشيخ الصدوق (أبو الحسن على بن بابويه) من أعمال لتكون فتاواهما بمثابة السند المعتبر والمقبول لدى الفقهاء؟

إنهما لم يقوما بشىءٍ غير العمل بأوامر أولياء النعم السادة المعصومين سلام الله عليهم.

وعليه؛ فإنّ الإنسان إذا ما قرّر اتّباع أوامر المولى فسيلمس حقّاً ما يتبع ذلك من توفيق ربّانىّ، ولاشكّ أن قدرة الله وتوفيقه أكبر

وأقوى من الشهوة والشيطان، فإذا ما اعتمد الفرد على ربّه وصمّم على المضىّ فى هذا الطريق القويم، فسيؤيّده الله تعالى ولن يسمح للنفس الأمّارة أو الشيطان أن يتغلّبا عليه. فالله سبحانه وعد بالنصر والتوفيق عبادَه المخلصين.

إنّ الله تعالى جعل الدنيا دار بلاء وامتحان، كما خلق الإنسان حرّاً مختاراً، ليتبيّن ما الذى سيقوم به.

لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ

البداية

نقل هذه الوصية مع أسانيدها العلامة المجلسى فى كتابه بحار الأنوار؛ قال:

قال أبو الأسود الدؤلى:

قدمت الربذة، فدخلت على أبى ذر، جندب بن جنادة رضى الله عنه، فحدّثنى أبو ذر قال:

دخلت ذات يوم فى صدر نهاره على رسول الله صلى الله عليه وآله فى مسجده، فلم أرَ فى المسجد أحداً من الناس إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله وعلىّ إلى جانبه جالس، فاغتنمت خلوة المسجد، فقلت:

يا رسول الله! بأبى أنت وأمى، أوصنى بوصية ينفعنى الله بها.

فقال: «نعم، وأكرِم بك يا أبا ذر، إنّك منّا أهل البيت، وإنّى موصيك بوصيّة فاحفظها، فإنّها جامعة لطرق الخير وسبله، فإنّك إن حفظتها، كان لك بها كِفلان»...

إنّه لمن النادر أن يتفق فيكون النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله جالساً أو ماشياً أو واقفاً منفرداً فى المدينة، فإنّ الناس كانوا دائمى المراجعة له لإدارة شؤونهم الماديّة والمعنويّة، وكان صلى الله عليه وآله يستقبل الناس جماعات أو فرادى بثغر باسم وخُلُق عظيم، ليعلّمهم ويزكّيهم ويحلّ مشاكلهم.

فقد تكون هذه الفرصة الثمينة التى تحدّث عنها أبو ذر رحمه الله حيث رأى النبيّ منفرداً الفرصة الوحيدة خلال صحبته فاغتنمها وطلب من النبى صلى الله عليه وآله أن يوصيه بما ينفعه بها الله تعالى.

وقد جاء فى الروايات حثّ الإنسان المؤمن على اقتناص فرصة رؤية العالم للسؤال منه عن أحكام الدين، وأنّ فيه الثواب الجزيل. لذلك؛ فإنّ على المؤمنين أن يحرصوا شديد الحرص على الاستفادة العلميّة من العلماء، وأن لا يضيّعوا أعمارهم فى لهو الحياة ولعبها.

كيف نعبد الله تعالى؟!

كيف نعبد الله تعالى؟!

«يا أباذر، اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه، فإنّه يراك.

واعلم أنّ أوّل عبادة الله المعرفة به، فهو الأول قبل كلّ شىءٍ، فلا شىء قبله، والفرد فلا ثانى له، والباقى لا إلى غاية، فاطر السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شىءٍ، وهو الله اللطيف الخبير، وهو على كلّ شىءٍ قدير.

ثمّ الإيمان بى والإقرار بأنّ الله تعالى أرسلنى إلى كافّة الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ثم حبّ أهل بيتى الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً».

إنّ الرؤية إما أن تكون بالعين الظاهرية، أو بعين العقل والإدراك العقلى. والمراد هنا بالرؤية أن تكون بالعين الباطنية والعقل؛ يقول الإمام الحسين سلام الله عليه مخاطباً الله تعالى:

«عميتْ عينٌ لا تراك عليها رقيباً»

أى لا خير فى إدراك العقول لما حولها إن لم تدرك مصوّرها. فالعمى أولى لها من الإدراك والشعور.

فالمقصود بالعين فى قول الإمام سلام الله عليه ليست العين المادّية المنصوبة فى الرأس، لأنّ هذه العين عاجزة عن رؤية الربّ تعالى.

إذاً الإنسان يتمتّع بنوع رؤية باصرة ورؤية معنويّة كاشفة.

ومن خصائص العين الباصرة كثرة الخطأ، علماً أنّ «الرؤية بالعقل» قد تخطئ هى الأخرى أحياناً، ولكن خطأها أقلّ بكثير من خطأ العين المادّية، وأنّ البصيرة موجودة لدى جميع الناس ولكنّها بدرجات متفاوتة.

وبهذه البصيرة بمستواها الراقى، طبعاً مع شرط التربية والمحاسبة الدقيقة والمتواصلة يمكن إدراك الله عزّ اسمه، وبهذا الإدراك تتمّ عبادة الله أيضاً.

العبادة والمعرفة

فى بعض كتب التفسير فى ذيل قوله تبارك وتعالى:

وَما خَلَقتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلّا لِيَعبُدُونَ

عبارة: (أى ليعرفون) مسبوقة بكلمة (روى). وقد تكرّرت هذه العبارة إلى حدٍّ أصبحت فيه من المرتكزات الذهنية.

وفى معرض الفحص والتحقيق لتبيان حقيقه الأمر، وفى ورود روايـة كهـذه مـن عـدمه، لـم يتـمّ العثـور عليهـا فى كتب الروايات والأحاديث، إلاـ فى كتاب منسوب إلى أحد صوفيّة السنّة. وعلى ذلك؛ فإنّ العبارة لا قيمة لها من حيث السند، علماً أنّ مضمونها ومفهومها يتضمّن المغالطة التى تنتهى إلى إشاعة التساهل غير المقبول فى الدين. فهذه العبارة تساوى بين مفهومى العبادة والمعرفة، مع أنّ بين مفهومى هذين المصطلحين تبايناً ماهوياً، أى إنهما يختلفان فى ماهيّتهما.

وقد ورد فى رواية عن مولانا الإمام الحسين سلام الله عليه:

«إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه، عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه».

فقال رجل: يابن رسول الله، بأبى أنت وأمّى، فما معرفة الله؟ قال: «معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذى يجب عليهم طاعته».

إنّ من الممكن تصوّر كون اجترار عبارة «ليعبدون، أى ليعرفون» من مفهوم الرواية أعلاه، ولكن لا بـد من الالتفات إلى وجود الكثير من الاصطلاحات والمفاهيم، وإلى أنّها مرتبطة فيما بينها، وأنّ هذا الترابط لا يعنى بالضرورة التجانس والعينية. فحينما يقال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» فإنّه يختلف عن القول: إنّ الإيمان هو عين الصبر، أو القول: إنّ جسم الإنسان هو عين رأسه.

وكذلك حينما يقال: إنّ أصول الدين هى كلّ الدين، فلا يمكن تصوّر أنّ الدين هو عين الأصول؛ ذلك لأنّ الدين يتألّف من أصول وفروع.

إذاً، فالعبادة غير ذات فائدة دون المعرفة، كما أنّ المعرفة التى لا تستتبعها العبادة ناقصة، كما هى العلاقة بين الصلاة والطهارة؛ إذ لا صلاة بلا طهارة، ولا تنفع الطهارة تارك الصلاة.

قال النبى الأكرم فى هذه الوصية صلى الله عليه وآله لأبى ذر: «أوّل عبادة الله المعرفة به». وقال الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «أوّل الدين معرفته»

من هذين الحديثين الشريفين يتبيّن الفرق بين العبادة والمعرفة؛ وهى أن المعرفة أوّل شرط للعبادة، وأنّ بها تبدأ العبادة.

إنّ العبادة إذا لم تقترن بالمعرفة، أصبحت عامل ضرر، وأخرجت العابد عن جادّة الصواب، فيرى نفسه منحرفاً نحو الشرك والرياء. والعابد على هذا النحو سيعتقد بالشرك توحيداً وبالذنب ثواباً، وستكون حتى عبادة الصنم حسب وجهة نظره عبادة لله، وهكذا تكون العبادة له بمثابة الطعام المسموم، فتصيب الروح بالمرض، بدلاً من أن تكون عامل إنقاذ للروح والنفس، وتغرق صاحبها فى الضلال وتعب الروح ومرضها.

إنّ العبادة تعنى العبودية، وهى لا تكون سوى للخالق والمولى الذى يتوقّف تمام الوجود على لطفه. فهو المولى والخالق، ونحن جميعاً عبيده.

إذاً يلزم العبد أن يعى مفهوم العبوديّة؛ لتتكامل عبوديّته. وحينما يتّضح معنى العبودية يفهم العابد بأنّ كلّ الوجود وحيثياته وشؤونه متعلّقة بالمعبود، حتّى هذه العبادة التى يزاولها إنّما هى عطاء من الله تعالى، فإذا أدرك العابد ربوبيّة الله، تمكّن من الاستفادة من بركات العبادة.

إنّ الفرق بين العبادة المقرونة بالمعرفة وبين العبادة المفتقرة لها، كالفرق بين الوردة الواقعية ورسمها، من حيث إنّ لهما ماهيّتين ومعنيين، فليس لرسم الوردة الشكيلة أىّ حقيقة من حقائق الوردة ذاتها. ولعلّ رسّاماً بارعاً يتمكّن من تصوير وردة هى فى شكلها أجمل وأروع من الوردة الحقيقية، ولكن يستحيل أن يكون لها مميّزات الوردة الواقعية.

إنّ بعض أشكال العبادة تشبه صورة وردة مرسومة على اللوحة أو الجدار، حيث لا فائدة أو ثمرة لها. فترى العابد يقتصر بالعبادة على مجرّد اللفظ والحركة أو السكون، دون أن تجد أو تلمس لها روحاً، أى أنّها وإن بدت كاملة من حيث الأداء الشكلى ومراعاة الأجزاء والشروط الظاهرية وإسقاطها للتكليف، ولكن هذا الإسقاط متأتٍّ من ناحية اللطف الإلهى، دون أن يكون لذات العبادة فائدة أو تأثير.

لقد قال الله سبحانه وتعالى بكلّ وضوح:

إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ

ومع أنّا نعلم أنّ أصدق كلام فى عالم الإمكان هو كلام الله تبارك اسمه، ولكنّا نشاهد كثيراً من الصلوات لا تحول دون الفحشاء والمنكر، بل إنّ منها ما يقترن بالمنكر أصلاً.

والسبب: أنّ ذلك كلّه إنّما يعود إلى خروج الصلاة عموماً عن ماهيّتها الواقعيّة وحقيقتها، فصارت عديمة الشبه بالصلاة الأصليّة، اللهمّ إلا فى الشكل ورفع التكليف، وإنقاذ صاحبها من العقاب الأخروى. إذاً فهى غير تلك الصلاة التى أشير إليها فى القرآن الكريم على أنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قد تكون جميع آداب الصلاة بما فيها المستحبّات والمكروهات ذات أهميّة خاصّة، ولكن الأمر الأهمّ من ذلك كلّه التوجّه إلى الله عزّ وجلّ، والذى عُبّر عنه ب «الإقبال» فى الروايات الشريفة، أى: إنّ الإنسان حينما يشرع بصلاته قائلًا: «الله أكبر» عليه أن يعى ما يقول، وإذا قال: «بسم الله» عليه أن يتعمّق فى هذه العبارة المقدّسة. ينبغى إيلاء الاهتمام بقضايا الوعى والدقّة أكثر من الاهتمام بالقيام بالمستحبّات، بمعنى أنّ الفرد إذا كان مخيّراً بين الدقّة واستيعاب العبادة وبين إنجاز بعض المستحبّات، فإنّ من المفترض أن يفضّل الخيار الأوّل.

قد يقف المصلّى بين يدى الله عزّ وجلّ، ولكنّه قد لا يتعمّق أو يهتمّ بموقفه، بل لعلّه لا يهتمّ والعياذ بالله بحديثه مع ربّه بمستوى اهتمامه بالحديث مع طفل ذى أربع سنوات، فترى جلّ همّه إتقان الألفاظ ومخارج الحروف، بينما هو غافل عمّا يقول، وهذا الأمر معلول الجهل بالمعبود.

إنّ الله تبارك وتعالى يحبّ للإنسان أن يصلّى بوعى وحضور قلب، وأن يصلّى فى أوّل الوقت، وإن كانت مقتصرة على الواجبات، إذ إنّ أداء الصلاة فى أوّل وقتها مع الوعى والتركيز، خير من اقترانها بكثير من المستحبّات ولكنّها مجرّدة عن الإخلاص والتركيز، وليس خافياً أنّ الإنسان إذا ما كانت له علاقة وطيدة مع أحد الناس، فإنّه يسعى إلى الإقبال التامّ عليه فى حال التحدّث إليه، لتكريس مزيد من العلاقة والحبّ تجاهه. ومَن أولى من الله الخالق الودود بالحبّ والارتباط؟!

يقول إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف فيما يخصّ العبادة ومستوى قرب واقتراب العابد من المعبود:

«اللهم أذنت لى فى دعائك ومسألتك».

فالله تبارك اسمه قد أكرم عبده كرامة لا تقاس بغيرها، وهى إذنه له بدعائه وعبادته والتحدّث إليه بصورة مباشرة، كما وعده الاستماع

إليه وقبول عبادته.

ثمّ يضيف سلام الله عليه قائلاً:

«فاسمعْ يا سميعُ مدحتى، وأجبْ يا رحيمُ دعوتى».

ولاشكّ أنّ عمق هذه العبارة وامتداد أفقها يتجاوزان عمق ومساحة السماوات والأرضين:

إنّ للمعرفة درجات ومراتب، وإنّ المعصومين يتمتّعون بأعلى الدرجات وأسمى المراتب الخاصّة بمعرفة الله المتعال. وإنّ علو الدرجة وسموّ المرتبة المعرفية والاقتراب من حقيقة الربّ المتعال هى التى توجب أو تعكس التفوّه بالعبارة المقدّسة، التى جاء فيها:

«اللّهم! أذنت لى فى دعائك ومسألتك»

وما تحويه من المعانى الملكوتيّة.

إنّ الإنسان العارف حقّاً لا يرتكب الخطيئة، لأنّه يدرك حقيقة الله وشأنه، ويلفّه الحياء والخجل من أن يرتكب ذنباً فى محضر ربّه، لاسيّما وأنّ جميع الطرق التى تؤدّى إلى ارتكاب المآثم والانحراف البشرى تنغلق وتنقطع عند المعرفة، فيُمنح صاحبها حياة شبيهة بحياة المعصومين، تماماً كما أنّ التعرف إلى الحالة البيئيّة أو الطبيعيّة لبدن الإنسان تدفعه فى معظم الأحيان إلى انتهاج سبيل الاعتدال والوقاية الصحيّة فيما يخصّ أمور التغذية، ليكون فى منأىً عن الأمراض، إضافة إلى أنّ المعرفة المعنويّة بدورها تنجى أو تقى المرء من التعرّض للأمراض والمشاكل الروحيّة كذلك.

فمتى ما حصلت المعرفة الواقعيّة، أصبحت روح الإنسان وقواه العقليّة وحتّى المادّية فى مأمن من الوقوع فى طرق ومهاوى الانحراف. ومن هنا كان من المفروض على الإنسان أن يسعى دائماً لتوسيع دائرة فهمه وأفق وعيه فيما يتعلّق بالربّ الواحد الأحد، وبعبادته وبشروطها، وينبغى أن يسير ضمن عملية تطوّر متواصل.

أقسام العبادة

لقد قسّم العلامة المجلسى رحمه الله العبادات إلى ستّة أقسام، هى:

۱. عبادة الشاكرين.

۲. عبادة المتقرّبين.

۳. عبادة المستحيين.

۴. عبادة ذائقى الحلاوة.

۵. عبادة المحبّين.

۶. عبادة العارفين.

●عبادة الشاكرين

قد يعبد الناس ربّهم على ما أنعم عليهم من النعم الكثير، مثل نعمة الحياة والسلامة وسائر النعم الماديّة والمعنويّة، فيشكرونه ويعبدونه. مثلاً: حينما يرى الإنسان شخصاً ضريراً أو أصمّ، فإنّه يشكر ربّه على نعمتى البصر والسمع اللتين أنعم بهما عليه، وهذا النوع من العبادة يُسمَّى عبادة الشاكرين.

●عبادة المتقرّبين

جميع الناس يحرصون على إقامة علاقات طيّبة مع الأشخاص ذوى السلطة والنفوذ، آملين اللجوء إلى سلطتهم ونفوذهم فى ساعات العسرة والحاجة.

وهناك قسم من الناس، وبداعى معرفتهم بالله سبحانه وتعالى حيث وجدوه الأقوى والأقدر من جميع الموجودات؛ باعتباره الموجد لها

يعبدونه ليحرزوا رضاه عنهم ويؤمّنوا لأنفسهم مستقبلاً طيّباً.

وتحقّق هـذا النوع من العبادة متوقّف على مستوى المعرفـة الصحيحة بالله تعالى، إذ لابدّ أن تتجذّر فى قلب الإنسان العابد حقيقة عدم وجود من هو أكبر وأقوى من ذات الله المقدّسة. وما لم تتكرّس هذه الحقيقة فى قلب الإنسان وروحه، فإنّه لن يُقبل على أداء صلوات مستحبّة، بل لا يبقى لديه تفاوت بين أداء الصلاة المكتوبة فى أوّل وقتها أو آخر وقتها، لأنّ إقامة الصلاة المستحبّة أو أداء المكتوبة فى أوّل الوقت يعدّ معلول المعرفة التامّة بالله تعالى، ولذلك جاء فى الحديث الشريف:

«فأوّل الوقت رضوان الله، وأوسطه عفو الله، وآخره غفران الله»

إنّ من يؤخّر صلاته أقلّ اطمئناناً إلى أنّ الله تبارك وتعالى سيجيبه إذا ما دعاه، ممن يؤدّى صلاته فى أوّل الوقت.

●عبادة المستحيين

وهناك قسم من الناس يشعرون بالخجل من الله تعالى والندم إزاء ما فرّطوا فى جنب الله وما ارتكبوا من الذنوب والمعاصى، فتراهم يعبدونه؛ طلباً لرحمته واستنزالاً لعفوه. هذه العبادة، تسمّى عبادة الاستحياء، أو عبادة المستحيين.

●عبادة ذائق الحلاوة

إذا تعبّد شخص ما فى ليلة القدر حتى الصباح، بخضوع وخشوع، واستقرّت روحانية ومعنويّة هذه العبادة فى قلبه، واستشعر لذّتها، فإنّه سيستيقظ فى ليالٍ أخرى على أمل الحصول على مثل تلك اللذة من العبادة، شأنه فى ذلك شأن من يقصد زيارة العتبات المقدّسة رغم ما يعانيه من مشاكل مادّية، فحينما يُتمّ زيارته ويعود إلى محلّ إقامته، تراه يعدّ الساعات والأيّام ليعاود الزيارة ثانية وثالثة ورابعة ...أو يتحسّر على عجزه المالى الذى يعيقه عن معاودة الزيارة. فهذا الشخص إنما ذهب للزيارة فى المرّة الأولى بقصد الثواب والمبرّرات العقليّة والشرعيّة، ولكنه يزور فى المرّة الثانية بقصد درك اللذة الروحية والمعنويّة.

إنّ هذا النوع من العبادة يُعدّ مرتبة سامية من مراتب العبادة، وتسمى: عبادة ذائق الحلاوة.

●عبادة المحبّين

المرتبة التالية للعبادة، هى التى تسمّى عبادة المحبّين، وهى أسمى من المراتب السابقة لها.

فدافع العبادة لدى بعض الناس هى العلاقة الوحيدة مع الربّ الرحيم الودود، فهم يعبدون الله تعالى، لأنّهم يحبّونه.

●عبادة العارفين

روى عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال مناجياً الربّ الجليل:

«ما عبدتُك خوفاً من نارك، ولا طمعاً فى جنّتك، لكن وجدتُك أهلاً للعبادة»...

ومثل هذه المعرفة هى التى يجب أن يُسعى لها.

ولكن، كيف يتسنى الحصول عليها؟!

إنّ لتحصيل هذه المعرفة طريقاً واحداً، وهو طريق أهل البيت سلام الله عليهم، بينما الطرق الأخرى كافّة هى طرق الشيطان، وليست طرق معرفة الله تعالى، حتى ما يصطلح عليه بالفلسفة أو العرفان ليست طرقاً موصلة.

والموضوع الدقيق فى هذا الفصل من كلام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والجدير بأن لا يُغفل عنه، هو أنّه بعد إيراد الشرط الأوّل لصحّة العبادة؛ والمتمثّل بالمعرفة، يعقّب صلّى الله عليه وآله بالقول: «الإيمان بى» أى برسالته صلّى الله عليه وآله ونبوّته وشخصه الكريم، ثم يعطف عليه بقوله: «ثم حُبّ أهل بيتى». وهذا (الحبّ) من الشرائط المهمّة للعبادة الحقّة.

أجل، حينما تتمّ المعرفة يتأتّى الإيمان، ومن يعرف الله تعالى يؤمن برسوله صلّى الله عليه وآله ويحبّ أهل البيت عليهم السلام، وواضح أنّ «المحبّ لمن يحبّ مطيع»، وهكذا ينبغى أن يكون.

فالإيمان والمعرفة يتوقّف أحدهما على الآخر، وهما بمثابة اللازم والملزوم، وحينها فإن وُجدا معاً، يأتى ويتحقّق حبّ أهل البيت سلام

الله عليهم.

ما هی سعادهٔ الإنسان؟

ما هی سعادهٔ الإنسان؟

«يا أبا ذر! احفظ ما أُوصيك به تكن سعيداً فی الدنيا والآخرهٔ.

يا أبا ذر! نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحهٔ والفراغ.

يا أبا ذر! اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»....

يأمر النبی الأكرم صلی الله عليه وآله فی هذا القسم من وصيّته أبا ذر رضوان الله تعالی عليه أن يعمل بوصاياه، ليحظی بسعادهٔ الدنيا والآخرهٔ.

إنّ الراحهٔ وطمأنينهٔ النفس الإنسانيهٔ أفضل مقياس لتحقّق السعادهٔ، لأنّ جميع مصاديق السعادهٔ الأخری تعود فی نهايهٔ المطاف إلی راحهٔ النفس واستقرارها واطمئنانها؛ فإنّ الثروهٔ والشباب، وتناول الطعام اللذيذ والتمتع بكل اللذائذ الأخری، تتحوّل جميعها إلی مرارهٔ وتفاههٔ، ما لم تكن مقترنهٔ براحهٔ الروح وطمأنينهٔ النفس.

فلو أنّ شخصاً ما قُدّم له فی بيته ألذّ الطعام، ولكنه فی الوقت ذاته كان مديناً بمبلغ كبير من المال يُثقل كاهله، وكان يتوقّع أن يطرق الدائن بابه فی أیّ لحظهٔ، فهو يحذر ويخاف من أن يذهب بماء وجهه، فيا تری هل يشعر بلذّهٔ حين يتناول ذلك الطعام؟

بينما إذا أُخبر فی تلك الأثناء أنّ شخصاً ما قد سدّد عنه دينه، وأن لا مبرر للقلق والخوف، ثم إنّه بعد ذلك انشغل بتناول مجرد الخبز اليابس والماء، ثم سئل عن نوعی الطعام؛ أيّهما ألذ: الطعام الأوّل مع القلق، أم الخبز اليابس مع راحهٔ البال؟!

إنّ من المؤكّد أنّ اللذّهٔ التی يستشعرها أثناء تناول الخبز اليابس أعلی بكثير من أیّ طعام لذيذ آخر، إذ لا لذّهٔ تُستشعر مع الخوف والقلق والاضطراب.

إنّ النبیّ الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وآله يحدّد للمؤمنين كافّهً وبوضوح بالغ نوع الدواء الناجع ليحقّقوا السعادهٔ فی الدنيا والآخرهٔ، أی ليعيشوا دائماً فی راحهٔ واطمئنان، ذلك لأنّ هذه الخصوصيّهٔ ستؤثّر علی جميع مظاهر ومصاديق السعادهٔ.

ويجدر بالفرد المتديّن أن يهتمّ كل الاهتمام بهذه الوصيّهٔ ويعمل وفقها. فمعنی التديّن: أن تراعَی جميع جوانب الدين، دون الالتزام الجزئیّ به. فالدين الذی ينتهی إلی منتصف الطريق لا يُسمّی ديناً، ولا يعالج أمراً، ومن ثم فإنّ ثمرهٔ الدين وفائدته ونتائجه الإيجابيّهٔ إنّما تتّضح وتتبلور حينما تحظی جميع مسائل الدين بالاهتمام اللازم.

أمّا ظاهرهٔ (الانتقائيهٔ) فی مسائل الدين وأحكامه التی يصفها الله (تبارك اسمه) فی القرآن الكريم بقوله تعالی:

وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ.

فتعتبر بمثابهٔ الآفهٔ التی تستولی علی قلب الإنسان وسلوكه وتنتهی بإيمانه إلی الضياع، والله سبحانه وتعالی يصف من تستولی عليه هذه الظاهرهٔ فی الدين بقوله الصادق والصارم:

أولئك هُمُ الكافرونَ حقّاً

إذ استيلاء هذه الظاهرهٔ علی القلب والفكر، تعنی والعياذ بالله التلبس التامّ بالكفر.

أمّا إن عمل الإنسان بجميع تعاليم الدين والتزم بجميع أبعاده، وحقّق السعادهٔ التی تمّ توضيحها له، فإنّه لن يعانی صعوبهٔ، أو يعذّبه ويقضّ مضجعه نوعُ اضطراب، وإن قضی الأيام عطشاناً والليالی جائعاً.

إنّ أبا ذر رضوان الله تعالى عليه الـذى هو من جملـة تلامـذة هـذه المدرسـة المحمديّـة، ومن عمل بوصايا النبىّ العظيم صـلّى الله عليه وآله، يعتبر أفضل وأسـمى قـدوة ومصـداق لهـذه الحقيقة، فهو قد توفّى جائعاً عطشاناً، وحيداً فى صـحراء المنفى الحارقة، ولكن موته كان مقروناً بالسـعادة والعزّة، ولم يشـعر بالخواء الروحى أبداً، كما لم يحسّ بالتعب والعطب مطلقاً، وإنّما ودّع الدنيا برضـىً تام وراحة بال مطلقة، إذ رغم عطشه وجوعه، وفقره وحاجته الماديّة، لم يستسلم للظلم والجور.

لاشـك أنّه لم تكن لأـبى ذر خصوصـية باعتبـاره مخاطبـاً، وإنّ خطاب النبىّ الأعظم صـلى الله عليه وآله كان موجّهاً إلى جميع الناس، وعلى مرّ التاريخ.

نعمتان مجهولتان

يشير النبىّ الأـكرم صـلى الله عليه وآله هنـا إلى نعمتى الصـحّة والفراغ اللتين يتمتّع بهمـا أكثر النـاس، ولكنّهم لا يعرفون قيمتهما، فهم مغبونون تجاههما.

إنّ مفردة (الغَبن) غالباً ما تستخدم فى القضايا الماليّة، وقليلاً ما تستعمل فى غيرها. فهى تستخدم للتعبير عن انخداع أحد طرفى العقد أو التعامل فى تحديد ثمن السلعة. وحكم الغبن معلوم فى المسائل الماليّة.

فإذا اشترى شخص ما سلعة، ولم يكن يعلم سعرها الحقيقى، فدفع ألفى درهم لما قيمته ألف درهم مثلاً، فإنّه يعتبر مغبوناً بألف درهم، لكونه انخدع بالألف الأخرى، وكذلك شأن من يخدع بأقوال وأكاذيب الآخرين، فهو فى واقع أمره مغبون خاسر.

وإنّ إحـدى نعم الله سـبحانه وتعالى التى لا يُعرف قـدرها عادةً، نعمـة السـلامة والصـحّة، إذ مادام الإنسان بريئاً من المرض ولم يُصَبِـب بأوجاع فى الرأس أو الظهر مثلاً، فإنّه يستطيع التنعم بلحظات عمره.

ومن المؤكّد أنّ أكبر منفعة فى عمر الإنسان هى ذكر الله تعالى، ويمكن التنعّم بهذه المنفعة فى حال الصـحّة والسـلامة على أتمّ وجه، كأوقات ما قبل النوم ولدى الذهاب والمجىء، ولكن قدرة الاستفادة من هذه النعمة الكبرى تقلّ حالة السقم والمرض.

وابن آدم يتنبّه بندم رهيب بعد الموت إلى ما فقده فى هذه النعمة وبركاتها العميمة.

فكم من ملايين المرّات قد تناسـى فيها قول «لا إله إلا الله» و «الله أكبر» والأذكار الأخرى خلال حياته؟ أوليس هذا التناسـى أو النسـيان مصداقاً واضحاً للغبن؟

إن لم يستفد الإنسـان من هـذه النعم واللحظات التى لا تقـدّر بثمن، فهو فى واقعه مغبون، وتضـييع هـذه الفرص يمثّل المعنى الحقيقى للغبن.

وقد روى قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: (مغبون فيهما كثير من الناس) فى بعض الروايات بعبارة أخرى، وهى:

«مفتونٌ مغبونٌ فيهما كثير من الناس».

إنّ كلمة «مفتون» تعنى «ممتحَن»؛ وذلك لأنّ النعم كلّما تنوّعت وتواترت على الإنسان، جعلته عرضة للامتحان والاختبار أكثر، وهكذا تتضاعف نسبة الخسارة والضرر.

وقد جاء فى بعض الروايات الكريمة:

«نعمتان مكفورتان: الأمن والعافية».

فـالكفر يعنى الستر، والإنسـان الكـافر هو الـذى يستر عقله ويخفيه بحجب الضـلالة والجهل والعناد، وعلى هـذا؛ فالكافر مقصِّر، لأنّه لا يستفيد من عقله بالصورة الصحيحة، رغم أنّه يفعّل طاقة عقله وذكائه وذاكرته فى القضايا غير الدينيّة بشكل جيّد، ولكنّه قد أزاح عقله عن المسائل العقائديّة والمعنويّة. فهو قد لا يتناول طعاماً فاسداً، ولا يورّط نفسه فى صفقه تجارية خاسرة، وقد يضفى على سلوكه طابعاً طيّبـاً، ولكنه على الصـعيد الـدينى يعطّل عقله، أى: يحجبه ويقيّـده دون العمل والانطلاق، مع أنه يلزمه إزاحـة السـتار المقيت، ليعرف

ویعی حقیقة وفوائد نعمتی السلامة والفراغ، لأنّ معرفة النعم، هی الشرط الأوّل لتحقیق الاستفادة الصحیحة منها.

نعمة العیش فی العصر النبویّ

لقـد أکرم الله سـبحانه وتعـالی النـاس فی عصـر النبیّ الأـکرم صـلی الله علیه وآله أن أوجـدهم فی ذلـک الزمان، وهی نعمـة ربانیّـة لا تضاهی، ولکن حیث یعسر الامتحان بتعاظم النعمة، فإنّ المعاصرین للحقبة النبویّة کانوا یعیشون أثناء ذلک فی وضع حرج للغایة.
فمثلًا: تری المنافقین الـذین کانوا علی عهد النبیّ المصـطفی صـلّی الله علیه وآله واختاروا طریق النفاق، أصـبحوا موضع غضب ولعن، ولو أنّهم عاشوا فی غیر زمن النبیّ صلی الله علیه وآله واختاروا النفاق أیضاً، لکان خسرانهم أقلّ درجة.
إنّ وجود النبیّ یعـدّ مصـدر برکـة وإلهـام لجمیع الأـمم علی مرّ العصور، فهو نور هدایـة وبشـارة، وإنّ کثیراً من الناس قـد اهتـدوا إلی الصراط السویّ عبر تعالیمه الفذّة ونصائحه القیّمة صلّی الله علیه وآله، وإنّ شعاع نور وجوده المبارک کان أکثر وهجاً لمن کان یعیش فی حقبته، ومن ثمّ فـإنّ اختیـار طریق الضـلال من قبـل بعض من عاصـروه صـلی الله علیه وآله، یعتبر خسـراناً مبینـاً وتیهـاً کبیراً، ولیس الخاسر والتائه آنذاک إلا کالمتعثّر فی الأرض البسیطة والفضاء المشرق المتوهّج.
إنّ العیش فی ظـلّ النعم امتحـان یصـل عبره من یصـل إلی جنان الخلـد، بینما یقع من خلاله بعض آخر فی مهاوی الضـیاع وحضـیض جهنم.

قیمة الشباب والصحة والغنی

بعد أن یبیّن النبی الأعظم صـلی الله علیه وآله أهمیّة نعمة الصحّة والفراغ فرصة الانطلاق ینبّه الشباب أن یعوا قیمة العمر وکونهم شباباً، وأنّ هذه المرحلة من العمر تمرّ وتنقضی، وهی غیر قابلة للاستدارة والعودة، وأنّ الإنسان یفقد أکثر قابلیاته وقواه بانقضاء مرحلة شبابه، وآنذاک تجده یقول آسفاً: «لیت شباباً بوع فاشتریته!».
ومفردة (لیت) یستعملها العرب للتمنّی لما لا یرجی تحقّقه.
أمّا قول النبیّ صـلی الله علیه وآله فی هذا الجزء فی وصـیّته، فیحوی إنذاراً وإخباراً، فهو ینذر الشباب بأنّ شبابهم مرحلة عابرة، وأنّه من الخطأ التساهل والتفریط به.
ثمّ یقول صلی الله علیه وآله: «وصحّتک قبل سُقمک».
إنّ أحوال الـدنیا غیرثابتـة، بل إنّ ذات الدنیا متغیّرة، فتری ابن آدم تارة مریضاً، وأخری سـلیماً، وشأن السـلامة شأن سائر النعم الدنیویّة والأحوال غیر الثابتة.
ولعلّ جمیع ما یتعلّق بالإنسان کالعبادة والمعاش، منوط بالسلامة والعافیة، فحینما یصاب بالمرض، یفقد نسبة غیر بسیطة من قدرته علی إنجـاز الکثیر من الأعمـال. ومن تراه یعمـل طیلـة نهـاره، ثمّ ینصب نفسه لأـداء صـلاة اللیـل، تراه أیضـاً یعجز عن مجرّد القیام فی حال مرضه، وحالـة المرض هذه تتضاعف لدیه حین الشـیخوخة، ومن ثمّ فإنّ للمرض وتأثیره حالة نسبیّة إزاء الشاب والشـیخ. ولذا کان من الجدیر بالإنسان أن یعرف قیمة سلامته، ویسعی حثیثاً لتحقیق أفضل درجات الاستفادة منها واستثمارها.
ثمّ یقول صلی الله علیه وآله: «وغناک قبل فقرک».
إنّ هذا المقطع من وصیّة الرسول المصطفی صلی الله علیه وآله جدیر بالتأمّل أیضاً.
ففیمـا یخصّ مفهومَی الفقر والغنی، یمکن القول بـأنّ حـالتی الفقر والغنی همـا صـفتان مشـکّکتان، أی: إنّ للفقر من حیث المصـداق درجات ومراتب متعـدّدة وطبقات متفاوتـة، إذ یحلّ کلّ فرد من الأفراد فی المجتمع فی طبقـة من الطبقات. وکلّ طبقـة فی واقعها غنیّة إزاء ما دونها، وفقیرة بالقیاس إلی ما فوقها.

وإنّ أشدّ حالات الفقر أن یجد المرء نفسه جائعاً، لأن نهایة المطاف فی الفقر أن لا یجد الإنسان ما یأکل، أو یعجز عن سدّ حاجة بطنه إلی الطعام.

رسول الله والفقر

مع أنّ الرسول الأکرم صلی الله علیه وآله کان قائداً وزعیماً للحکومة الإسلامیّة، وقبل ذلک کان یتمتّع بأقرب المنازل علی الإطلاق إلی الله عزّ اسمه، إلا أنّه کان یحمّل نفسه أقسی حالات الجوع، وکثیراً ما کان یتفق أنّه صلی الله علیه وآله لم یتناول طعاماً لوجبات متتالیة ثمّ یتوافر لدیه المال أو الطعام فیسرع إلی التصدّق به أو إهدائه لمن یصادفه من الفقراء به.

وطالما اضطرّ صلوات الله وسلامه علیه وآله إلی شدّ ما کان یعرف ب (حجر المجاعة) علی بطنه لشدّة ضغط الجوع علیه.

نعم، لقد کان النبی صلی الله علیه وآله، وهو أشرف الأوّلین والآخرین وقائد المسلمین وزعیم الحکومة الإسلامیّة العادلة، یتّخذ هذا السلوک وهو فی أوج السلطة والاقتدار.

ولقد ورد فی الروایات عن أهل البیت صلوات الله وسلامه علیهم أنّ الجوع الذی کان یعانیه النبیّ فی مدّة إقامته فی المدینة المنوّرة یصل حداً لا تنفع معه مختلف التدابیر ومحاولات التحمّل.

فقد أخبر صلی الله علیه وآله ذات یوم ابنته فاطمة الزهراء سلام الله علیها قائلاً:

«ما دخل جوف أبیک منذ ثلاث شیءٌ».

مثل هذا الإنسان الربانیّ الخالص، یتوجّه بالنصح لأبی ذر رضوان الله تعالی علیه بأن یعی قَدْر نعمة الغنی قبل أن یحلّ به الفقر علی حین غرّة.

روی عن الإمام جعفر الصادق سلام الله علیه أنه قال:

«نزل جرئیل علی رسول الله، فقال: إنّ الله جلّ جلاله یقرئک السلام ویقول لک: هذه بطحاء مکة؛ إن شئت أن تکون لک ذهباً.

قال: فنظر النبیّ إلی السماء ثلاثاً ثمّ قال: لا یاربّ، ولکن أشبع یوماً فأحمدک، وأجوع یوماً فأسألک»

نعمة الفراغ

قال رسول الله صلی الله علیه وآله بعد ذلک:

«وفراغک قبل شغلک، وحیاتک قبل موتک».

إنّ ابن آدم یعجز عن فعل شیءٍ بعد الموت، ویفقد القدرة حتی علی قول «لا إله إلا الله» ویعجز عن التصدّق بأبسط الصدقات، ولذلک أضحی من الضروری والمنطقی أن یغتنم حیاته بأفضل الأشکال، لأنّ المنتصر الوحید هو من یستثمر جمیع أوقاته خلال حیاته المسارعة إلی الانقضاء.

المبادرة إلی تحقیق الأهداف

المبادرة إلی تحقیق الأهداف

«یا أبا ذر، إیّاک والتسویف بأملک، فإنّک بیومک ولستَ بما بعده. فإنْ یکن غدٌ لک، فکن فی الغد کما کنت فی الیوم، وإنْ لمْ یکنْ غدٌ لک، لم تندم علی ما فرّطتَ فی الیوم.

یا أبا ذر، کم مِن مستقبلٍ یوماً لا یستکمله، ومنتظرٍ غداً لا یبلغه!!».

يوجّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الصحابيّ الجليل أباذر بأن يعمل وكأنّه يعيش فى آخر يوم من حياته، بحيث لو عاش فى غد لا يستولى عليه الندم فى كونه ترك فرضاً أو عبادهٔ فاتته فى الأمس، أو عملًا صالحاً بعينه لم يمارسه، أو ارتكب معصيهٔ بحقّ الله تعالى أو أذى بحق إنسان صدر منه.

وقد ذكر الرسول صلى الله عليه وآله الأماني ههنا من باب المثال، والغرض هو أن يتأمّل الإنسان فى حياته وأن يكون قصير الأمل، لأنّه لا يدرى هل سيعيش غداً؟

لقد مضى على رحيل أبى ذر حوالى (١۴٠٠) عام، لكن اسمه ووصيهٔ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ما يزالان خالدين فى الأذهان.

لقد التزم أبو ذر بوصيّهٔ سيّده ومولاه، فأصبح اسمه لامعاً مشرقاً فى كتب التأريخ والتفسير والثقافهٔ.

لقد رحل أبو ذر وانتهت حقبته، وجاء الدور إلى أُناسٍ آخرين، فما هى مدى وكمية استفادهٔ هؤلاء من ثروهٔ أعمارهم وفرصهم فى الحياهٔ؟

قصهٔ وعبرهٔ

قصد أحدهم المرحوم آيهٔ الله العظمى السيّد الميرزا مهدى الشيرازى قدس سره وطلب منه أن يكلّف شخصاً كى يصلّى نيابهٔ عن جدّه صلاهٔ الاستئجار ويصوم عنه شهراً كاملًا، وقال: لقد أوصى جدّى قبيل وفاته أن يباع بيت من بيوته ويخصّص ثمنه للصلاهٔ والصوم نيابهٔ عنه، ولكنّ أيّاً من الورثهٔ لم ينجز هذه الوصيهٔ، ولكننى أريد الآن القيام بذلك بعد حوالى سبعين سنهٔ وأن أعمل بوصيّته. فمع أنّه ترك أموالًا كثيرهٔ لورثته، لكنه لم يطلب أكثر من أن تباع إحدى دوره للصلاهٔ والصوم نيابهٔ عنه.

لقد رُزق هذا الشخص حفيداً صالحاً، وإلا كان سيحرم حتى من صلاهٔ وصيام هذه السنهٔ كما هو حال كثيرين.

ويُنقل عن شخص آخر أنّه كان مستطيعاً لأداء فريضهٔ الحجّ، ولكنه لم يفعل ذلك. وحينما أحسّ باقتراب الأجل منه أوصى أن يحجّ ابنه عنه، ولكن المؤسف أنّه لم يكن ابناً باراً، فلم ينفّذ وصيّهٔ أبيه، وحينما كان يسأل عن تقصيره فى تنفيذ وصيّهٔ أبيه، كان يردّ قائلًا: لمَ لم يحجّ فى حياته، لا شأن لى بذلك!!

أقول: إنّ الإنسان ما دام يتمتّع بفرصهٔ الحياهٔ، فإنّ من الحرىّ به أن يهتمّ بإعمار آخرته، وإن استطاع جدلًا أن يهجر النوم والطعام فى سبيل ذلك، فعليه أن يفعل وإن كان لا مناص له منهما؛ إذ بدون النوم لا يستطيع مواصلهٔ العبادهٔ أو الدراسهٔ أو الكتابهٔ، ما يعنى ضرورهٔ الاقتصار على الحدّ الأدنى من المنام والطعام وغير ذلك، كمن يقصد المستشفى، فيُرقده الأطباء فيها للعلاج، ولكنّه مع ذلك ليس على استعداد لأن يبقى لحظهٔ إضافيهٔ فى هذا المكان على الوقت اللازم، وإن كان البقاء مجانيّاً. والنوم والطعام واللباس كذلك شأنها؛ أى ينبغى الاستفادهٔ بحدود الضرورهٔ، مع الأخذ بنظر الاعتبار لزوم مراعاهٔ الآخرين ومداراتهم فى بعض الأحيان، ومثاله: إذا حلّ ضيف على إنسان فإنّه يجب عليه مداراهٔ الضيف إلى الحدّ الممكن. ولكن هذه الوصايا متعلّقهٔ بحالهٔ كون الإنسان وحيداً، فمن المفترض أن يسعى للاكتفاء بالحدّ الأدنى من الاستفادهٔ من النوم والطعام ما أمكنه.

يُنقل أنّ قوماً كانوا يعيشون على ساحل البحر، وكان من شأنهم أنهم ينتخبون لأنفسهم ملكاً يحكمهم فى كلّ سنتين، ولم تكن تهمّهم حقيقهٔ من يحكمهم، سواء كان حمّالاً ـ أو بقّالاً ـ أو عالماً، شابّياً أو شيخاً، وكانوا يخبرونه بأنّهم سيطيعونه طاعهٔ مطلقهٔ خلال هاتين السنتين، ولكنّهم يقومون برميه فى البحر عند انقضاء المدّهٔ، ولذلك قلَّ أن يتقدّم شخص لتقبّل المنصب، إلا أنّ حكيماً مفكّراً أعلن استعداده لأن يكون ملكاً عليهم. فكان له ذلك، وخلال السنتين أرسل جمعاً من أفراد حاشيته ليعثروا له على جزيرهٔ مناسبهٔ للعيش، وأن ينقلوا إليها وسائل لإقامهٔ العيش الرغيد، كما أمر بتشييد البساتين والمزارع فيها، وصنع الزوارق للانتقال إليها، وقام بإخفائها فى ناحيهٔ من نواحى الشاطئ. وحينما انقضت سنتا حكومته رماه الناس إلى البحر، فأوصل نفسه إلى الزوارق وقصد الجزيرهٔ وأمضى بقيّهٔ عمره فيها.

فتلک السنتان هما الدنیا، وتلک الجزیرة هی الآخرة. والإنسان إذا عمّر مئة عام، فإنّها تعدل تلک السنتین، ثمّ یرمی إلی البحر، وفیه قد یکون من نصیب الحیتان المفترسة. فإن لم یکن من أهل المعاصی، فإنّه یتحسّر علی ما فرط منه فقط، ولکنّه إن کان من أهل المعاصی والعیاذ بالله فإنّ الحسرة ستمتزج بالعذاب الإلهی.

إنّ قول ذلک سهل علی اللسان ولکن ما أصعبه فی الواقع!

فمثلًا: إذا سافر شخص ثمّ تنبّه إلی أنّه قد نسی وسائل السفر ومتطلّباته، فهو لاشکّ سیتحسّر لذلک، مع أنّه یستطیع توفیر تلک الوسائل لاحقاً بواسطة مکالمة هاتفیة أو إرسال برقیّة، ولکن فی سفرة الموت ینتهی عنده کلّ شیء، ومن کان من أهل العصیان سیتأکّد بأنّه قد قُضی علیه ویعجز عجزاً مطلقاً عن فعل شیءٍ ما، وتبدأ إذ ذاک مأساته.

التعجیل بالتوبة

ما دام ابن آدم حیّاً، فإنّ باب التوبة مشرع لدیه، فیمکنه أن یصلح ماضیه ویضع نفسه فی طریق السعادة والتکامل.

وبهذا الصدد، یؤکّد الرسول الأکرم صلی الله علیه وآله:

«إنّ الله تعالی یتوب علی عبده قبل سنة من موته، بل سنة کثیر، إنّه یتوب علیه قبل شهر، بل شهر کثیر، إنّه یتوب علیه قبل أسبوع من موته، بل أسبوع واحد کثیر، إنّه یتوب علیه قبل یوم، بل یوم کثیر، إنّه یتوب علی ابن آدم قبل لقائه ملک الموت إن تاب واستغفر»....

أی: إنّ الله تعالی یقبل التوبة من العبد حتی قبیل نظره إلی عالم الآخرة بلحظة، ولکن لا ینبغی التسویف فی التوبة وإیکالها إلی الغد وما بعده، إذ ما هی الضمانة لدیه فی أن یبقی حیّاً إلی الغد؟ وهل الذین ماتوا کانوا یعلمون بموعد انقضاء آجالهم؟

إنّ من المستحسن أن یزور الإنسان القبور، لیعلم أنّ أهلها نائمون تحت أکداس من التراب، وکان فیهم من هو أعلم وأذکی وأغنی وأقوی وأکثر أو أقلّ عمراً منه. فکلّ واحد منهم کان یمنّی نفسه بالعدید من الأمانی، ولکن ما هی النهایة التی انتهی إلیها؟ وهل حقّق جمیع الموتی أمانیهم؟

یقول الرسول الأعظم صلی الله علیه وآله: «إیّاک والتسویف» فلْیمتنع من یظنّ فی نفسه العقل والإرادة عن التباطؤ فی إعلان التوبة ومشروع الإصلاح النفسی.

یروی أنّ عمر بن سعد لعنه الله قال أبیاتاً من الشعر بعد أن عزم علی حرب الإمام الحسین سلام الله علیه؛ منها قوله:

فإن صدقوا فیما یقولون إننی أتوب إلی الرحمن من سنتین

فهل تاب حقّاً؟ وهل کانت ستنفعه توبته المزعومة؟ علماً أنّ الله تعالی لا یتجاوز عن حقّ المظلوم.

وإذا کان الله تبارک وتعالی هو العادل و إنّ اللَه لا یَظْلِمُ مثقالَ ذرّةٍ فإنّه ینبغی الخوف والحذر من عدل الله. فهو لا یتجاوز عن مظلمة صغیرة لعباده، ولا یقبل فی ذلک عذراً أو تبریراً.

بعض الظالمین یردّد مقولة «المأمور معذور» وهی مقولة خاطئة إذا اُرید منها الإطلاق، ولا تکون مقبولة إلّا فی منطق الطغاة، کفرعون ویزید وهارون العباسی، غیر أنّ الأمر لیس علی هذا النحو فی منطق الرسول المصطفی صلّی الله علیه وآله ومنطق القرآن الکریم ومنطق الإمام أمیر المؤمنین سلام الله علیه وعباد الله الصالحین.

فالمهمّ هو الآمر من یکون، وهل أمره حقّ؟ فعندما یکون المأمور کأبی ذر رضوان الله تعالی علیه والآمر الرسول الأعظم صلی الله علیه وآله، فهنا لیس المأمور معذوراً فحسب، بل هو مأجور أیضاً.

أما المأمور من ناحیة سلطان الجور، فإنّ جمیع أعماله وإن کان ظاهرها صالحاً هی فی عداد الباطل والإثم.

علی سبیل المثال: لا فضیلة فی الإسلام کعمارة المساجد؛ إذ ورد فی القرآن الکریم والروایات الشریفة أنّ فی بناء المساجد فضائل جمّة، ذلک لأنّها محالّ العبادة والدعاء والتوبة والاعتکاف وغیر ذلک، لکننا نلاحظ أنّ الإمام جعفر الصادق سلام الله علیه یقول لأحد

أصحابه:

«لا تُعنْهم ¬ الطغاة والظلمة ¬على بناء مسجد».

إنّ القضيّة مهمّة للغاية وخطيرة، فحتّى إذا بنى شخص ما للظالم مسجداً أو داراً للأيتام أو حسينيّة، فلا يقبل منه، لأنّ عمله هذا يوجب تقوية ودعم المؤسّسة الظالمة على الصعيد الدعائى ومحاولة خداع الناس، ولذلك لُعنت بعض المساجد فى بعض الروايات المرويّة عن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام!!

أقول: هناك من بين آلاف الرواة الشيعة عدّة مئات من هم فى عداد الثقات ومحطّ الاعتماد، ومن بين هؤلاء عشرات أفضل من الآخرين، ولعلّ من بين هؤلاء العشرات من يوصفون بأنّهم خيرة الخيرة، وقد كان أحد هؤلاء رجل يدعى صفوان بن مهران الجمّال.

كان لصفوان هذا جمال كثيرة يكسب رزقه بما يعود عليه من مال إجارتها. ذات يوم استأجر هارون العباسى جمالاً منه.

يقول صفوان: دخلت على أبى الحسن الأول (موسى بن جعفر سلام الله عليه) فقال لى: يا صفوان، كلّ شىء منك حسن جميل، ما خلا شيئاً واحداً. فقلت: جعلت فداك، أىّ شىء؟ قال: إكراوك جمالك هذا الرجل يعنى هارون.

قلت: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا لصيد ولا للهو، ولكنى أكريته لهذا الطريق، يعنى طريق مكّة، ولا أتولّيه بنفسى، ولكنى أبعث معه غلمانى.

فقال لى: يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟

قلت: نعم، جعلت فداك.

فقال لى: أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟

قلت: نعم.

قال: فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وروده فى النار.

قال صفوان: فذهبت فبعت جمالى عن آخرها. فبلغ ذلك الى هارون، فدعانى فقال لى: يا صفوان، بلغنى أنك بعت جمالك. قلت: نعم. قال: ولم؟ قلت: أنا شيخ كبير وإن الغلمان لا يفون بالأعمال. فقال: هيهات هيهات، إنى لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك بهذا موسى بن جعفر سلام الله عليه. فقلت: ما لى ولموسى بن جعفر سلام الله عليه! فقال: دع هذا عنك، فو الله لولا حسن صحبتك لقتلتك».

التفكر فى الموت والقيامة

التفكر فى الموت والقيامة

«يا أبا ذر، لو نظرتَ إلى الأجل ومصيره لأبغضتَ الأملَ وغرورَه.

يا أبا ذر، كنْ كأنّك فى الدنيا غريب، أو كعابر سبيل، وعدَّ نفسَك من أصحاب القبور».

إنّ الأجل هو اللحظة التى يغادر فيها الإنسان دنياه. فهو بعد طىّ مسيره الدنيوى يصل إلى مصيره الأخروى، وهذه خاصيّة الإنسان، إذ الحيوانات لا (مصير) لها.

فالأجل هو أوّل الآخرة وخاتمة الدنيا، وتبدأ عمليّة الحساب بعد الممات مباشرة، والقبر هو المصير الأوّل:

«القبر إمّا روضةٌ من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران».

والمصير الذى يلى القبر هو يوم القيامة. أما المصير النهائى فهو إمّا الجنّة أو النار.

هناك كثير من الناس يبذلون ما يستطيعون من الجهد خلال فترة شبابهم وقوّتهم، ولا يريحون أنفسهم إلا قليلًا، ولكنّهم يضحّون ب

(مسيرهم) لحساب (مصيرهم)، كما أنّ كثيراً من الناس يقضون (مسيرهم) باللهو واللغو ويقولون: ليكن (المصير) ما يكون!!
إنّ الطفل الذى يعِدُه أبوه بالجائزة إن استحمّ وتنظّف، يدرك على مستواه معنى وضرورة التضحية بالمسير لصالح المصير، أى أنّه يتحمّل إزعاج الاستحمام من أجل الوصول إلى الجائزة الموعودة، إلا أنّ كثيراً من الكبار مع الأسف يضحّى بالمصير من أجل المسير.
إذا فكّر ابن آدم فى عاقبة الأمر وتساءل مع نفسه عمّا سيكون مصيره؛ الجنّة أو النار، حيث مطلق النعيم أو مطلق العذاب والسخط، فإنّه لن يغفل بعد ذلك عن ذكر الله تعالى، ولن تخدعه أمانيه، وسيقول لنفسه: إنّ أولئك الذين قضوا نحبهم كانت لهم آمالهم، الصغير منهم والكبير، ولكنهم رحلوا جميعاً مع أمانيهم وآمالهم.
وحين يفكر الإنسان بهذه الطريقة المتعقّلة، سيهجر أمانيه. لاشك أنّ مجرد التمنّى ليس أمراً معيباً، ولكن ما يعتوره من الكذب والغرور يجرّ ابن آدم إلى حيث وادى الغفلة والجهل والضياع.

الغربة فى الدنيا

يقول النبىّ صلى الله عليه وآله:
«يا أبا ذر، كن كأنّك فى الدنيا غريب»...
كما أنّ الفرد الذى يعيش فى بلاد الغربة، ويجهل قوانينها، ولا يعرف لغتها، يستعلم من الناس عمّا يحتاج إليه من إعداد المسكن والطعام، ويسأل أهل الخبرة والعلم عن كلّ شىءٍ يشكّ فيه. فكذلك ينبغى أن يكون حال ابن آدم فى غربة الدنيا، فإن لم يعلم أمراً، وجهل حكمه الشرعى، فعليه أن يتورّع عن الخوض فيه حتى يسأل أهل الخبرة والعلم، من أئمة أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم، إذ يجب أن يسأل هؤلاء عن السلعة المرغوبة فى سوق الآخرة، فيحملها إليها من دار الدنيا.
وواقع الأمر يؤكّد ضرورة أن تكون جميع أعمال المؤمنين محطّ تأييد ورضا أهل البيت سلام الله عليهم، وأنّ الخاسر هو من يقضى عمره فى ممارسة أعمال يظنّها صالحة وما هى كذلك لأنّها لا تحظى برضا الربّ المتعال فى الدار الآخرة، ولم تكن موضع تأييد المعصومين عليهم الصلاة والسلام.
إنّ الله تعالى جعل رسوله المصطفى وأهل البيت سلام الله عليهم طرقاً مضيئة إلى إنجاز أعمال الخير والصلاح، وهؤلاء لا انفصام بينهم، إذ لابدّ من الالتزام بأوامرهم جميعاً لممارسة الدين.
وفى عصر الغيبة غيبة إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف يلزم الرجوع إلى الفقهاء الذين لهم آراؤهم المستقاة من القرآن والسنّة، بعد أن يفرغوا كلّ جهدهم فى هذا السبيل.
على سبيل المثال: كان المرحوم آية الله العظمى السيّد مهدى الشيرازى يجلس من أجل البحث فى قضية استفتائيّة إلى عدّة من المراجع والمجتهدين فى عصره، مثل المرحوم السيّد حسين القمّى والسيّد محمد هادى الميلانى والميرزا الأصفهانى وزين العابدين الكاشانى، وقد يقضون فى مسألة واحدة أسبوعاً من التفكّر والتأمّل؛ كلّ ذلك من أجل إحراز أكبر نسبة من الحقيقة والواقع الشرعى.
ثم قال صلّى الله عليه وآله: «أو كعابر سبيل».
إذا أراد شخص ما التوجّه من مدينة إلى أخرى، فإنّه لا يهتمّ للطريق الرابط بينهما إلا بما يضمن عبوره بسلام، دون الالتفات إلى خصوصيّات المناطق الكائنة فيه، إذ إنّ ما يتعلّق به هو سرعة وسلامة الوصول، وهكذا أراد النبىّ المصطفى صلى الله عليه وآله للإنسان أن ينظر إلى الدنيا كما ينظر المسافر إلى الطريق، فلا تشغله الجادّة عن الوصول إلى المقصود.
وقال صلّى الله عليه وآله: «وعدّ نفسك من أصحاب القبور».
أى لا تلجئ نفسك إلى الارتباط بالدنيا طرفة عين، وتخيّل أنّك تعيش آخر أيّامك بل تصوّر أنّك قد وُضعت فى القبر، وأُهيل عليك التراب، وبقيتَ وحيداً مع أعمالك، وأنّ أهلك وأصحابك قد تركوك.

ذُكر في كتب المواعظ والإرشاد: أنّ شابّاً من الأنصار كان يأتي عبد الله بن عباس، وكان عبد الله يكرمه ويدنيه، فقيل له: إنك تكرم هذا الشاب وتدنيه، وهو شابّ سوء يأتي القبور فينبشها بالليالي! فقال عبد الله بن عباس: إذا كان ذلك فأعلموني. قال: فخرج الشابّ في بعض الليالي يتخلّل القبور، فأُعلم عبد الله بن عباس بذلك، فخرج لينظر ما يكون من أمره، ووقف ناحية ينظر إليه من حيث لا يراه الشاب، قال: فدخل قبراً قد حفر، ثم اضطجع في اللحد، ونادى بأعلى صوته: يا ويحي إذا دخلت لحدي وحدي، ونطقت الأرض من تحتي، فقالت: لا ـ مرحباً بك ولا أهلاً، قد كنت أبغضك وأنت على ظهري، فكيف وقد صرت في بطني! بل ويحي إذا نظرت إلى الأنبياء وقوفاً، والملائكة صفوفاً، فمن عدلك غداً من يخلّصني؟ ومن المظلومين من يستنقذني؟ ومن عذاب النار من يجيرني؟ عصيت من ليس بأهل أن يعصى، عاهدت ربّي مرّة بعد أخرى فلم يجد عندي صدقاً ولا وفاءً.

وجعل يردّد هذا الكلام ويبكي. فلما خرج من القبر التزمه ابن عباس وعانقه، ثم قال له: نعم النباش، نعم النباش، ما أنبشك للذنوب والخطايا، ثم تفرّقا.

نعم! إنّ شابّاً ينشغل بذكر الموت والآخرة لذو حظٍّ عظيم، ولعمله هذا قيمة كبرى.

الحذر من الصرعة عند العثرات

الحذر من الصرعة عند العثرات

«يا أبا ذر، إيّاك أن تدركك الصرعة عند العثرة، فلا تُقال العثرة، ولا تُمكّن من الرجعة، ولا يحمدك من خلّفتَ بما تركتَ، ولا يعذرك من تَقدّم عليه بما اشتغلت به».

العثرة والصرعة

العثرة بمعنى السقوط إلى الأرض، وهي أمر طبيعي في حياة الإنسان، لأنّه ليس كائناً معصوماً، لاسيما وأنّه كثيراً ما تبهره زخارف الدنيا وزينتها، ولذلك يقترف الذنوب، ويتعدّى على حقوق الله أو الناس.

والنبيّ صلى الله عليه وآله يوصي أبا ذر رضوان الله تعالى عليه ويذكّره خطر العثرة والسقوط، لئلّا تتبدّل عثرته إلى صرعة.

إنّ من السقطات الصغيرة التي يتعرّض لها الإنسان في الدنيا ما تعيقه وتعجزه عن القيام مرّة أخرى، شأنه في ذلك شأن المصاب بمرض بسيط، ولكنّه يغفل عن معالجته حتى يستفحل عليه ويتسبّب له بأمراض خطيرة ومميتة.

إلا ـ أنّ ما يقصده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من تحذيره أبا ذر من السقوط، ليس هو السقوط الجسماني والمادّي منه، بل هو السقوط المعنوي، وإذا ما حدث ذلك، فينبغي الإسراع إلى معالجة الأمر، لئلّا يتحوّل إلى صرعة دائمة مميتة.

قد يحدث أن يصاب جسم الإنسان بجرح عميق، ولكن من شأن هذه الإصابة أن تلتئم في حال المعالجة والعناية الدقيقة، وهكذا هو شأن العثرة المعنويّة، فالذنب والسقوط، مهما عظم وكبر، فإنّ رحمة الله المطلقة وعفوه اللامحدود يُجبران زلّة الإنسان، إن هو أراد التوبة، أمّا إذا عتا واستكبر، فسيذوق وبال أمره، عاجلاً أم آجلاً.

إنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي لم يكن شخصاً مجرماً قاتلاً في بداية حياته، بل قيل إنّه كان من أهل الصلاة والصيام، بل كان إماماً للجماعة، فكيف تحوّل هذا الشخص إلى طاغية جبار كما هو معروف عنه؟!

لقد أصبح الحجّاج حاكماً دموياً بفعل عثراته المتعاقبة وغفلاته المتتالية، حتى كانت عاقبة عثرته الأولى صرعة قاضية في نهاية المطاف.

لهذا وغيره، أوصى أهل البيت سلام الله عليهم أصحابهم مراراً وتكراراً أن يحاسبوا أنفسهم كلَّ يوم. وقد أورد علماؤنا الأعلام

ومحدّثونا العظام فی کتبهم مثل: أصول الکافی، وبحار الأنوار باباً تحت عنوان «باب محاسبة النفس کل یوم». وهذه الوصایا الکریمة کلّها من أجل الحذر من العثرة، ولئلاّ تُبدّل والعیاذ بالله إلی صرعة.

وأکثر من ذلک، هناک من العثرات الفردیّة ما یسری خطرها إلی الجماعة، فمثلًا: إذا کان ربّ البیت سیّئ الخُلُق، فإنّه سیؤثّر شیئاً فشیئاً فی سائر أفراد الأسرة. وهکذا سیکون تأثیر سوء الخلق لدی الحاکم أو المسؤول أکثر بکثیر منه فی الأفراد العادیین فی المجتمع. کما أنّ الخطر الذی یحدق بالمتسلّق الواقف علی قمّة الجبل، أکثر بدرجات من الخطر الذی یهدّد من لم یبدأ الصعود بعد. ولذلک کان الحذر المطلوب من الأوّل أکثر أیضاً، ومن ثم لو زالت قدمه قلیلًا، فعلیه الإسراع والمبادرة إلی تدارک موقفه، والرجوع بقدمه إلی حیث کانت، وإلا فإنّ الهلاک والموت مصیره المحتوم.

الصرعة بعد النبی

لقد أعقبت عثرة الناس بعد وفاة الرسول الأکرم صلی الله علیه وآله عندما نکثوا بیعتهم لأمیر المؤمنین علی سلام الله علیه صرعة لا تجبر، إذ لو کان الإمام سلام الله علیه قد أمسک بالحکم فی تلک المدّة التی دامت خمساً وعشرین سنة بعد رحیل النبیّ الأکرم صلی الله علیه وآله فإنّ ظلماً واحداً ما کان لیقع، ولعاش الجمیع وکذلک الأجیال المتلاحقة بنعمة الرفاه والسلام والاستقرار.

لقد أدّت عثرة إبعاد أمیر المؤمنین سلام الله علیه عن السلطة والخلافة إلی صرعة تخطّی الطریق الذی رسمه النبیّ صلّی الله علیه وآله، وإعادة الناس باسم الإسلام إلی الجاهلیة العمیاء. فالعثرة التی حدثت بعد الرسول الأعظم صلّی الله علیه وآله أهلکت جماعةً، وساقت جماعات آخرین باتجاه طریق الدمار تحت شعارات دینیة فی ظاهرها، دنیویة فی باطنها. وقد تطرّقت روایات أهل البیت سلام الله علیهم إلی حقیقة أن مردّ جمیع ما وقع ویقع من الظلم إلی أُولئک الذین حالوا دون العمل بوصیّة رسول الله صلی الله علیه وآله الخاصّة بالسلطة والخلافة الحقّة، حیث کان من المفترض أن یخلف النبی صلّی الله علیه وآله من له الحقّ الإلهی فی ذلک، وأن تتجنب الأمّة الانحراف، وتتّقی العثرة، لئلا تتحوّل الی صرعة.

عامل بنی أمیة والنجاة من الصرعة

علی بن أبی حمزة البطائنی قال: کان لی صدیق من کتّاب بنی أمیة، فقال لی: استأذن لی علی أبی عبد الله سلام الله علیه فاستأذنت له فلما دخل سلّم وجلس ثم قال: جعلت فداک إنی کنت فی دیوان هؤلاء القوم فأصبت من دنیاهم مالاً کثیراً وأغمضت فی مطالبه. فقال أبو عبد الله سلام الله علیه:

«لولا أنّ بنی أمیة وجدوا من یکتب لهم ویجبی لهم الفیء ویقاتل عنهم ویشهد جماعتهم لما سلبونا حقّنا، ولو ترکهم الناس وما فی أیدیهم ما وجدوا شیئا إلا ما وقع فی أیدیهم».

فقال الفتی: جُعلت فداک، فهل لی من مخرج منه؟ قال:

«إن قلت لک تفعل؟»

قال: أفعل. قال:

«اخرُج من جمیع ما کسبت فی دواوینهم، فمن عرفت منهم رددت علیه ماله، ومن لم تعرف تصدَّقتَ به، وأنا أضمن لک علی الله الجنّة».

قال: فأطرق الفتی طویلًا فقال: قد فعلت جُعلت فداک.

قال ابن أبی حمزة: فرجع الفتی معنا إلی الکوفة، فما ترک شیئاً علی وجه الأرض إلا خرج منه حتی ثیابه التی کانت علی بدنه.

قال: فقسمنا له قسمة واشترینا له ثیاباً وبعثنا له بنفقة.

قال: فما أتى عليه أشهر قلائل حتى مرض، فكنّا نعوده.

قال: فدخلت عليه يوماً وهو فى السياق ففتح عينيه ثم قال: يا علىّ وفّى لى والله صاحبك.

قال: ثم مات، فولينا أمره، فخرجت حتى دخلت على أبى عبد الله سلام الله عليه فلما نظر إلى قال:

«يا علىّ وفينا والله لصاحبك».

قال: فقلت: صدقت جُعلت فداك، هكذا قال لى والله عند موته.

وكيل الإمام يسقط فى الصرعة

وأمّا على بن أبى حمزة البطائنى فقد بلغ من أمره أن انقلبت عثرته إلى صرعة!

فهو كان وكيلًا للإمام جعفر الصادق سلام الله عليه، وبعده أصبح وكيلًا للإمام موسى بن جعفر سلام الله عليهما، وحينما كان الإمام الكاظم رهين الحبس، جمع ابن أبى حمزة أموالاً كثيرة باسم الإمام، وبعد استشهاد الإمام الكاظم وانتقال الإمامة إلى الإمام على الرضا سلام الله عليه، أعلن ابن أبى حمزة التمرّد وعدم اتّباع الإمام الرضا، وذلك لأنّه كان يعلم بأنّ إقراره بإمامة الإمام الرضا يعنى ضرورة وجوب إعادة الأموال (الوجوه الشرعية) إلى إمامه الواجب الطاعة، لكنه اختار العمى على البصيرة وهو الذى كان قد ساهم فى إنقاذ كثير من الناس من ظلمات الضلالة فاختار لنفسه مذهباً سُمّى فيما بعد بمذهب الوقف، أى إنّه وبعض من تبعه ممّن سقطوا فى حضيض الضلال، وقفوا بالإمامة عند الإمام موسى الكاظم سلام الله عليه، مغلّفين ذلك بأغلفة عقائدية وفكرية باطلة.

والحال أنّه من المفترض المبادرة إلى قطع طريق الضلالة والذنوب، لأنّ من يكذب مثلاً ـ يضطرّ للتغطية على كذبته الأولى إلى الانغماس فى كذبة أخرى، فيتكاثر عليه الكذب، وتتوالى عليه العثرات، حتى تصرعه فيهلك، كما هلك ابن أبى حمزة.

وكما أنّ جراح الجسد لابدّ من معالجتها سراعاً، لئلّا يضطرّ صاحبها إلى بتر عضو من أعضائه نتيجة الإهمال، فكذلك هى الجراح النفسية والدينية والاجتماعية؛ ما لم تتمّ مداواتها بالسرعة القصوى، فإنّها تنتهى بأصحابها إلى المهلكة.

ينبغى أن يتمّ التأكّد والتحرّز من أبسط قضايا الحياة ومشاكلها، للحيلولة دون الوقوع فى المحارم والمآثم، فمن كان مجتهداً، عليه أن يجتهد، ومن كان مقلّداً، عليه أن يسأل مرجعه، لكيلا تتحوّل عثرته إلى صرعة تقضى عليه نهائياً.

قيمة العمر

قيمة العمر

«يا أبا ذر، كن على عمرك أشحَّ منك على درهمك وديناركـ.

يا أبا ذر، هل ينتظر أحدٌ إلا غنىً مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجّال؛ فإنّه شرُّ غائب ينتظر، أو الساعة.. فالساعة أدهى وأمرُّ»؟!

فى هذه الفقرة تمّ الانتقال من صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب؛ وذلك لأنّ أبا ذر رضوان الله تعالى عليه ليس مصداقاً للمقطع الثانى. يتساءل النبى صلى الله عليه وآله من أبى ذر: ماذا ينتظر من لا يعرف قيمة عمره ويبادر إلى اصلاح أمر آخرته قبل فوات الأوان، ونراه يسوّف فى ذلك؟ أينتظر أن يكون غنياً للقيام بذلك، والحال أنّ الثروة تأتى بالطغيان؟ أم ينتظر الفقر بدعوى أنّه حين الغنى لا مجال له للعبادة والعمل بينما الفقر يتسبّب عادة بالنسيان ومنه نسيان أو نكران النعم الأخرى؟ أم ينتظر المرض، والمرض بطبعه يتسبّب بفساد البدن؟ أم ينتظر الشيخوخة، وهى تنتهى بابن آدم إلى الضعف والعجز؟ أم ينتظر الموت الذى يقضى عليه؟ أم ينتظر ظهور الدجّال وقيام القيامة؟

كنّى النبى صلى الله عليه وآله بما سبق للإشارة إلى بطلان التسويف وأنّ الإنسان لا ينبغى له أن ينتظر حتى حصول حوادث كهذه، بل عليه المبادرة إلى إصلاح أمر الآخرة، بما يتضمّن ذلک اقتناص فرصة العمر التى لا تقدّر بثمن، وأن لا يؤجّل عمل اليوم إلى غد، ولا يقول مسوّفاً: إن أصبحت ثريّاً سوف أستخدم ثرائى فى سبيل الله، لأنّ من طبيعة الغنى الطغيان. كما لا ينبغى أن يؤجّل التوبة وذكر الله تعالى إلى وقت المرض بدعوى أنّ الحاجة إذ ذاک ملحّة، لأنّ المريض بالأصل يكسل أو يضعف عن ذلک. كما أنّ الغنىّ بدوره لا يصحّ منه القول بأن لا فرصة لديه لعمل الخير والمستحبّات، وأنّه إذا ما افتقر، التفت إلى العبادة وإيتاء المستحبّات، وأنّ المرحلة مرحلة بيع وشراء وتدوين وحساب، دون أعمال الخير والمستحبّات.

فالنبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله يؤكّد فى هذه الفقرة من وصيّته المباركة على بطلان انتظار إعمار الآخرة، ويتساءل عمّا ينتظره الشخص المسوِّف، أينتظر أن يتبدّل فقره غنىً؟ بينما الغنى يوجب الطغيان عادةً، أم ينتظر أن يتبدّل غناه فقراً؟ والفقر يُنسى صاحبه؛ وعليه لا يصحّ تأجيل العمل الصالح.

فمن كان فى ذمّته حقّ من حقوق العباد، فعليه صناعة الفرصة، أو اقتناص أوّل فرصة لأدائه والتوبة عن ذنبه والتصميم على جبران ما فاته.

ومن كان قادراً على مساعدة الآخرين، فليهجر التقاعس، وهكذا الحال بالنسبة للشخص القادر على التأليف والنشر والتوزيع؛ لينهض بالمستوى الحضارى والثقافى للناس، ومن كان قادراً على العبادة فعليه أن يعبد.

وبكلمة أوضح: من أتيحت له الفرصة فى إعمار آخرته، فليس له التأخّر والتكاسل عن ذلک، فقد لا تؤاتيه الفرصة مرّة أخرى.

البخل بالعمر

الفقرة الثانية من العبارة توضيح وتفصيل للفقرة الأولى.

ففى الأولى قال النبى صلى الله عليه وآله:

«يا أبا ذر، كن على عمرک أشحّ منک على درهمک وديناركِ»

وفى الثانية تمّ التطرّق إلى أضرار عدم اغتنام فرصة العمر، إذ لا ضمانة فى جبران خسائر الأمس. ويبدو أنّ هذا هو المورد الوحيد فى الروايات الشريفة، تمّ فيه التوصية بالشحّ.

إنّ البخل بالمال صفة معيبة، ذمّتها النصوص الدينيّة وعدّتها سلوكاً قبيحاً، ولكن البخل بالعمر صفة ممدوحة، وقد أوصى بها النبى صلّى الله عليه وآله صاحبه أبا ذر الغفارى.

وما يلفت الانتباه هنا، هو أنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله قد استخدم مفردة (شحّ) باعتبار أنّ الشخص المبتلى بالشحّ ليس مبتلىً بالبخل بأمواله فحسب، بل هو بخيل بأموال غيره أيضاً، حيث يحول دون إنفاق الآخرين أموالهم فى سبيل الله تعالى خدمةً ومساعدة لمن حولهم. فإذا رأى شخصاً يتصدّق على فقير، أو عزم على إنجاز عمل الخير، سعى حثيثاً لمنعه وتحذيره من الفقر والفاقة، تحت طائلة أهميّة التفكير بتغيّر الأحوال، بدلاً من أن يغبطه على كرمه والتصميم على أن ينافسه فى أداء أعمال الخير.

مع ملاحظة ذلک، تبدو ضرورة أن يحرص المرء على عدم التفريط بعمره، لئلا يذهب به سدى ويضيّعه بالباطل. فالشحيح فى العمر عمره وعمر الآخرين يستولى عليه الانزعاج إذا رأى غيره يفرّط بعمره. وطبعاً هذه حالة أرقى وأكثر تقدّماً من مجرد الشحّ بالعمر الشخصى، فترى صاحبها لا يتخلف عن توجيه النصح للآخرين بالحرص على أعمارهم.

روى أنّ الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه أورد فى يوم عاشوراء خطبةً بكى لها أعداؤه القتلة، وهم الذين كانوا يصكّون أسماعهم أو يتظاهرون بعدم الالتفات إليه، أو كانوا يجيبونه بقبيح الردّ فى أوائل الخطبة ذاتها، وقد قيل فى سبب هذا التحوّل أنّ قلب الإمام الحسين سلام الله عليه كان يحترق على ما يرى فى الأعداء من تفريط بأعمارهم؛ أعمار كان بمقدورهم أن يجعلوها كأعمار

حبيب بن مظاهر أو زهير بن القين، أو الحرّ الرياحى، ولكنّهم أضاعوها، فتأسّف لهم سيّد الشهداء، ولذلك توجّه لهم بالنصح والموعظة.

نبيُّ الرحمة

تبدو العبارة أعلاه غايةً فى الصحّة والمصداقيّة، ذلك لأنّ تاريخ المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم مفعم بالرحمة والشفقة، ففى ذلك اليوم الذى تكالب فيه المشركون على شخص رسول الله صلى الله عليه وآله لإيذائه وثنيه عمّا أعلنه من أمر النبوّة والرسالة، وحيث عمد فيه أطفال المشركين ونساؤهم على رجم النبى المصطفى بالحجارة فى أزقّة مكّة وشوارعها وإيذائه بشدّة حتى قال:

«ما أوذى نبىّ مثلما أوذيتُ».

وكان بدنه كلّه يتصبّب دماً وألماً ... فأنزل الله عزّ اسمه ملائكة من السماء ليعرضوا عليه مساعدتهم، وهو آنذاك بين الموت والحياة بعد شوط من الملاحقة والتنكيل و ... ذرفت الدموع منه صلى الله عليه وآله، فقال له ملك من الملائكة عظيم: لو شئت يا رسول الله أضرب بجبال مكّة لتخرّ على أعدائك، بينما قال آخر: لو أذنتَ لى لزلزت الأرض من تحتهم وأفنيتهم عن آخرهم، ولكن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وبشفقة متناهية رفض هذه العروض، وتوجّه إلى ربّه الذى زرع فيه الرحمة وعلّمه الشفقه داعياً بالقول:

«اللهم اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون».

بلى، رغم أنّهم كانوا ينصبون أغلظ العداء والضغينة لرسول الله صلّى الله عليه وآله، وكانوا يرمونه بالحجارة حتى فضخوا رأسه الشريف أكثر من مرّة، إلاّ أنّه كان يشفق عليهم ويطلب لهم الرحمة والمغفرة، وهذا نموذج غاية فى الوضوح من شحّه حيال أعمار أعدائه الألدّاء، وحرصه على هدايتهم وإرشادهم.

العضّ بالنواجذ على لحظات العمر

قبل أربعين سنة مضت، كان رجل يعيش فى مدينة كربلاء المقدّسة، وكان له بستان كبير خارج المدينة، فقرّر أن يبيعه، فعرض عليه شخص مبلغ ثلاثة آلاف دينار ثمناً لها وكان هذا المبلغ يومذاك من الأهميّة بحيث يمكن أن يشترى به عشر كيلو غرامات من الذهب.

وبعد أن تمّت الصفقة، وحيث كان البائع يسير فى الطريق، رآه أحد أقربائه، فسأله عن بستانه، فأخبره أنّه قد باعه بثلاثة آلاف دينار، فتعجّب السائل وقال له: لقد بعتَه بثمن بخس، ولو أنّك أخبرتنى من قبل لعرضت عليك ستّة آلاف دينار! فلم يجبه الرجل وتوجّه إلى بيته، وهناك جلس يفكّر متحسّراً على ما فرّط فى بستانه وكبير الخسارة التى مُنىَ بها، وفى غد ذلك اليوم أصيب بالسكتة القلبية وقضى نحبه، وكان خبر وفاته قد فاجأ وأفجع معارفه، لاسيّما وأنّ موت الفجأة (السكتة القلبية) لم يكن كثيراً فى تلك الأيام.

هنا لابدّ من القول بأنّ عمر الإنسان أغلى وأكثر قيمة من البستان وسائر الممتلكات، ولعلّ الأقسى فجيعة أن يتنبه المرء على حين غرة أنّه قد باع أغلى ما يملك وهو العمر بأبخس الأثمان، والفجيعة والندم والحسرة تتجلّى لصاحبها بوضوح شديد وإن لم يكن من أهل الذنوب والمعاصى، لأنّ إضاعة العمر وحدها تجعل الإنسان يعانى أشد العذاب وأقسى أنواع تأنيب الضمير.

إنّ عمر كل فرد من أفراد الناس تماماً كعمر سلمان وأبى ذرّ وحبيب بن مظاهر وميثم التمار ومسلم بن عوسجة ورشيد الهجرى وزرارة ومحمد بن مسلم الطحّان. فالساعات والأيام نفس تلك الساعات والأيام الخاصّة بأعمار هؤلاء العظماء.

لذلك ينبغى التفكير مليّاً فى مدى ما نقضيه من أيّامنا على طريق التقدّم والرقىّ، فذاك الذى باع بستانه بثمن قليل عجز عن المقاومة حتى أصيب بالسكتة القلبية واستسلم، ولكن من قصرت يده عن الدنيا ويمّم وجهه شطر الدار الآخرة، مهما اغتمّ للتفريط بعمره، فإنّه لن يصاب بالسكتة وستكون حسرته حسرة أزليّة!!

لقد ذکرت الروایات، وقبل ذلک الآیات القرآنیة الکریمة، أنّ الکافرین والمنافقین والفاسـقین سیتحسرون فی یوم القیامة علی أنّهم لم یکونوا مؤمنین، والمؤمن المقصِّر سیتحّسر علی أنّه فرّط بعمره بنوع من التفریط، وأنّه لم یفد منه حقّ الاسـتفادة ومنتهاها، لاسیّما وأنّه سیری بـالیقین أنّ أموراً من قبیـل سوء الخلق وممارسـة الکـذب والخوض فی مزیـد من اللعب واللهو هی من مصـادیق التفریط بالعمر، وفی المقابل أن ممارسـة العبادة الخالصـة والاسـتماع إلی الموعظة والقول الأحسن واتباعهما، والتعلّم کلّها تعدّ من مصادیق الاسـتفادة الحقّة من فرصة العمر.

إنّ من یجعل للعمر قیمةً باهضة، لن یتساهل فی التفریط به، ولن یضـیعه دون حساب، فتراه لا ینام أکثر من الحدّ المطلوب، ولا یقضـی وقته فی الراحة والترفیه إلا ما اقتضت الضرورة القصوی.

تری کیف نعتقـد أنّ من یبیع البضـائع بأقـلّ من ثمن شـرائها مجنوناً، فی حین لا نعتقـد الاعتقاد ذاته بمن یضـیع رأس ماله الوحیـد فی الحیاة ووسیلته إلی حیازة الجنّة والرضوان الإلهی الأبدی، بثمن هو عبارة عن اللهو واللعب؟!

الغایة من التعلم

الغایة من التعلم

«یا أبا ذر، إنّ شرّ الناس منزلةً عند الله یوم القیامة: عالمٌ لا ینتفع بعلمه. ومَن طلب علماً لیصرف به وجوه الناس إلیه، لم یجد ریحَ الجنة. یا أبا ذر، من ابتغی العلم لیخدع به الناس، لم یجد ریح الجنة».

یحدّد النبی الأکرم صلی الله علیه وآله لنا فی هذا المقطع من الوصیّة الأسوأ بین الناس، حیث یشیر إلی أنّ الأسوأ هو من لا ینفعه علمه شیئاً، أو لا ینتفع ممّا تعلّم، أی من یعلم ما هی الموبقات مثلًا ثم یعمـد إلی اقترافها. ومن الواضـح أنّ مثل هؤلاء الأفراد قـد ضـلّوا وهم أعجز عن هدایة الآخرین.

التعلّم لنیل المناصب

یواصل الرسول المصـطفی صـلی الله علیه وآله نصـیحته لأبی ذر رضوان الله تعالی علیه ولکافّة المؤمنین، فیشـیر إلی أنّ من طلب العلم للحصول علی المناصب ومغانم الـدنیا، فقد حرم نفسه من ریح الجنّة، أی أنّه لیس یُمنع من دخولها فحسب، بل لا یمکنه الاقتراب منها أیضاً.

طبعـاً، نلاحـظ أنّ أکثر العلمـاء من الناحیـة العملیـة ینالون المناصب الدنیویّـة الظاهریـة، وأنّهم مع ما یحملون من العلم یتمتعون بمنزلة رفیعـة، إلا ـ أن مـا یحـدّد المصـداق لقول النبی الأـکرم هو نوع النیّـة المبیّتـة التی تـدفع إلی کسب العلم، ولاشک فی أنّ لکلّ فرد من الأفراد دافعه الخاصّ به وراء تحمّل مشاقّ طلب العلم.

ویلاحـظ هـذا التفـاوت أیضـاً فی مختلف منـاحی الحیـاة. فمن النـاس من ینطلق إلی العمـل لتـأمین معـاشه، وآخر یتاجر لأنّه یعلم بأنّ الکاسب بالکسب الحلال حبیب الله، وهو یرید أن یحقّق رضا الربّ المتعال، فالطرفان یصـلان إلی أهدافهما، وکل منهما یؤمّن معاشـه عن هـذا الطریق، ولکن ذلـک الـذی یقصـد السوق تقرّباً إلی الله سبحانه، فإنّ کل عمله ثواب وأجر، ویکون عنـد الله أحبّ من ذلک المجرّد عن نیّة التقرّب، ولیس له من همّ سوی تأمین معاشه، رغم أنّ ما یقوم به هو أیضاً سلوکٌ مطلوب وممارسة ضروریة.

التعلم وخداع الناس

«من ابتغی العلم لیخدع به الناس لم یجد ریح الجنّة».

النوع الآخر من العلماء الـذين لن يجـدوا ريـح الجنّـة ويحرمون من رؤيتها، أولئك الـذين يسـعون وراء العلم، ولكن هدفهم من التعلّم كسب القدرة على خداع الناس، وإرادتهم تصيير الباطل حقّاً والحقّ باطلاً.

فالابتغاء يعنى الطلب، و «من ابتغى العلم» أى من سعى وراء العلم، وهو بطبيعة الحال يجهد جهده لكسب العلم، إلّا أنّ دافعه لذلك هو التعلّم لبسط هيمنته على أذهان الناس ليجرّهم إلى حيث يريد هو، لا إلى حيث يريد الله تعالى.

وليس هـذا النوع من الدوافع بالجديد، وإنّما هو دافع عرفه الإنسان منذ القدم، ومثال ذلك ما يعرف بمذهب السفسـطائيين والسفسـطة حيث تمّ التخطيط لنشـر وتوسعة وتفعيل هذا النوع من التفكير لخلط الحقّ بالباطل، والتأسيس للمغالطات الفكرية فى القضايا الحقوقيّة، والذين اشـتغلوا بهذا الشـغل عكفوا على دراسة الفلسـفة والحقوق، فتعلّموا بشـكل رسمىّ أصول المغالطات، ليلبسوا الحقّ بالباطل أثناء المرافعات القانونية.

مقياس العمل

كثير من الناس يدرسون ويعظون ويهدون الآخرين إلى الصـراط السوىّ. وكثير من الناس يمارسون الكتابة والتأليف، وكلٌّ منهم يشـبه الآخر، ويعمل كلّ منهم حسب الظاهر كما يعمل سواه، غير أنّ العامل الذى يميّزهم شـىءٌ يمكن تسميته: (النيّة) وهى التى تفرّق وتميّز الطرفين فى حقيقة الأمر أو عالم المعنى.

وهناك أربعة عناصر تمثّل ملاكات لتقييم عمل وسلوك الإنسان عموماً، وهى:

۱. النيّة.

۲. كيفيّة العمل.

۳. كميّة العمل.

۴. نتيجة العمل.

وجميع هـذه العناصـر دخيلـة ومؤثّرة فى تحديد قيمة العمل، إلا أنّ عنصـر «النيّة» له من التأثير الكبير ما يفوق غيره من العناصـر بصورة مباشرة وحسّاسة.

إنّ النيّة بمثابة الجوهرة الأصـيلة والمحور الذى يحدّد لكلّ عمل قيمته المناسـبة، والله سـبحانه وتعالى من جانبه محيط بجميع النوايا ولا يعزب عنه أمر من الأمور ونيّة من النوايا. ومن جانب آخر لا مناص من القول بأن توجّهات النفس ومسيراتها الإيجابيّة والسلبيّة لها تأثير بالغ على طبيعة الحياة الاجتماعية والدينية والسياسيّة للإنسان.

وتعتبر حيـاة أصـحاب رسول الله صـلى الله عليه وآله أفضل درس وخير مثال لفهم هـذه الحقيقـة. فقـد كان الأصـحاب جميعاً يحيطون بالنبى ويتردّدون عليه ليسـتلهموا منه القضايا والمباحث العلميـة والأحكام والبصائر الدينيّة، ولكن نيّاتهم المخلصة أو غير المخلصة هى التى جـذبت كلاًـ منهم إلى طريق معيّن، وانتهت بهم إلى هـذا المصـير أو ذاك. ويمكن الإشـارة هنا إلى أنّ نيّـة «سـلمان المحمّـدى» الخالصة قد بلغت به حدّاً وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله بالقول: «أنت منّا أهل البيت».

وليس أبو ذر غريباً عن هـذه المنزلـة الأسـمى، إذ إنّه لم يسـئ إلى أحد، وكان إلى جانب أبى ذر أشـخاص تتلمذوا على يدى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله واستلهموا من علمه المتصل بالوحى، ولكن أبا ذر وسلمان وأمثالهما هم الذين بلغوا هذه القمّة السامقة.

إنّ أقوال وأفعـال وأفكار النبىّ الأكرم صـلّى الله عليه وآله كانت كلّها علوماً سـماويّة ومعارف إلهيّـة، وكان كلّ واحـد من الأصـحاب يسـتلهم من وجوده المقدّس ما يستلهم، وفى الوقت ذاته كانت فى مواقف بعضهم ما يبعث على الحيرة والتعجّب، لاسيّما للأجيال التى تلتهم، فرغم أنّهم جميعاً كانوا يأخـذون عن رسول الله صـلى الله عليه وآله، إلّا أنّ نواياهم المتباينـة دفعت كثيراً منهم إلى السـقوط فى المهاوى السحيقة بصورة لا تُصدَّق، وكان أحد هؤلاء الأصحاب رجل يسمى (القعقاع).

فمع أنّ ما تلقّاه القعقاع من النبی صلی الله علیه وآله لم یکن من ناحیة الکم بأقلّ من غیره من الأصحاب، إلّا أنّه لم یکن یتمتع بنیّة وشخصیة وسلوک طاهر نزیه، وکان یمتاز بالعنف المفرط مع الناس، حتی أنّه سلک سلوکاً شیطانیّاً مع سکّان إحدی القری غیر المسلمة التی کان یفترض به أن یدعو أهلها إلی الإسلام والسلام، ولکنّه عمد إلی تقسیمهم عدّة أقسام، فمنهم من حرق، ومنهم من رمی من فوق الجبل، ومنهم من رجم، ودفن بعضهم أحیاءً فی الآبار.
وإذا قارنّا الآثار الوجودیّة الخاصّیة بأبی ذر بما یمیّز هذا الشخص القعقاع اتّضح لنا مستوی تأثیر النیّة علی الإیمان. فأبوذر رحمه الله تعالی لم یکن له سلطة أو جیش أو ثروة، وإنّما کان سلاحه الوحید نیّته الطاهرة وسلوکه القویم مع جمیع سکّان ما یدعی الآن بجنوب لبنان، حتی هداهم بذلک إلی الانتماء لمدرسة أهل البیت سلام الله علیهم واتّباع سیرة الرسول الأعظم صلی الله علیه وآله، فی حین کان لعنف القعقاع وخشونته اللئیمة ومئات الأشخاص من أمثاله ردّة فعل عکسیّة فی مواقف سکّان المناطق غیر المسلمة، فزادوهم بعداً عن الإسلام والقرآن، فتسبّب هؤلاء (الأصحاب) باستفحال العداء من قبل الکفّار لدین السماء الحقّ. وإنّ المؤکّد فی الأمر هو أنّ سبب عدم إسلام الناس فی مختلف مناطق العالم یعود إلی نوع سلوک القعقاع وأمثاله الذین کانوا شرّ سفراء و(فاتحین).

مصیر العنف

لقد ضرب أشخاص مثل القعقاع وخالد مثلًا للعنف والخشونة، ولم یخلّفوا وراءهم غیر التنفّر والعناد والحقد.
ومن الشواهد علی ذلک الاختلاف بین کیفیة مبایعتهم من قبل الأمّة وکیفیة مبایعة الإمام علی سلام الله علیه. فقد روی أنّهم قیّدو الإمام سلام الله علیه بالحبال ووضعوا السیوف علی رقاب الثلّة من حواریه لأخذ البیعة منهم قسراً؛ فیما أعلن أمیر المؤمنین سلام الله علیه وهو الإمام المنصوب بنصّ القرآن الکریم ووصیّة الرسول الأعظم صلی الله علیه وآله أنّ الناس جمیعاً غیر مجبَرین علی مبایعته، وکان إذا قیل له: إنّ فلاناً وفلاناً لم یبایعا، وإنّ من الضروری إجبارهما وغیرهما من أمثالهما علی البیعة، کان سلام الله علیه یرفض ذلک رفضاً قاطعاً، ولعلّه کان یکتفی فی بعض الحالات بالحوار الهادئ معهم، أو یذکّرهم ما سبق منهم من المبایعة له فی واقعة الغدیر، أو بما سمعوا عن رسول الله صلی الله علیه وآله فی کونه الإمام والخلیفة الشرعی دون سواه.

الإسلام یرفض العنف

إنّ من الممکن جدّاً نشر الإسلام والتبلیغ له من دون استخدام القوّة والسیف. وقبل ذلک لابدّ من تحدید موقف الدین من العنف وممارسة القوّة واستعمال السلاح. إن الإسلام لم یشرع استخدام القوّة إلا حین الدفاع وردّ الاعتداء أو الهجوم المعادی، وقد طلب أهل البیت سلام الله علیهم منّا أن نکون لهم خیر دعاة، فقد روی عن الامام الصادق سلام الله علیه:
«کونوا لنا زیناً ولا تکونوا علینا شیناً».
وثمّة مثل رائع للسلوک المسالم والداعی للأمن والسلام کان له أکبر الأثر فی اعتناق الناس للإسلام، وهو السلوک الشخصی للنبی المصطفی صلی الله علیه وآله بعد فتح مکّة المکرّمة. لقد کانت مکانة أبی سفیان فی الإسلام معلومة، فهو الذی أعلن منذ بدء الدعوة رفضه ومعارضته للحرکة الربانیّة المحمدیّة الولیدة، وقد کرّس کلّ جهوده ووظّف حیاته وجمیع ما یملک لطمس نور الإسلام وتصفیة شخص النبی الأعظم صلی الله علیه وآله، ورغم هذا التاریخ الأسود لأبی سفیان إلا أنّ النبیّ المصطفی صلی الله علیه وآله جعل من بیته محلاً آمناً وقال بکلّ صراحة:
«من دخل دار أبی سفیان فهو آمن».
ومن الواضح أنّ هذا العفو والکرم لا نظیر لهما عبر التاریخ، فأین نجد قائداً قد جعل دار عدوّه الألدّ والأکثر حقداً علیه وعلی مبادئه وأصحابه محلّ أمن وسلام.

إنّ سعة لطف ورحمة نبيّنا المصطفى صلى الله عليه وآله بلغت حدّاً يعجز الآخرون عن دركها، ولم يبقَ لهم إلا اتباعه بما أمكنهم.

قصة أخوين

كان في عهد الإمام الجواد سلام الله عليه أخوان يعيشان بين المسلمين، وفي قصّتهما خير نموذج لدرك ما للنوايا من التأثير في سلوك وشخصيّة ومصير كلّ إنسان.

هذان الأخوان هما محمد بن فرج الرخجي وعمر بن فرج الرخجي، عاشا في جوّ عائليّ واحد، فبلغ محمد فيها القمّة حين أصبح من الأصحاب المقرّبين والأوفياء للإمام الجواد سلام الله عليه. وقد نُقلت في كتابَي (جواهر الكلام) و(وسائل الشيعة) روايات عن محمد بن فرج باعتباره راوية ثقة، وأحد أصحاب الإمام المعصوم سلام الله عليه. بينما كان أخوه عمر على النقيض منه تماماً حيث اشتهر بالظلم والوقاحة وخدمة المجرمين، من أمثال: هارون والمأمون والمعتصم والمتوكّل.

وفي تلك البرهة حيث كان محمد منشغلاً بتحصيل العلوم الحقّة وجمع الأحاديث والروايات ونقلها، كان أخوه عمر منهمكاً في ظلم الشيعة وقمعهم وتدميرهم.

فبعد استشهاد الإمام موسى الكاظم سلام الله عليه على يد طاغيته الجلودي وبأمر من هارون العباسي مباشرة، أوعز هذا الأخير له بمصادرة أموال وممتلكات أسرة الإمام الكاظم، ثمّ أمر بتعيين عمر بن فرج والياً على المدينة ومكّة، وأصدر له مرسوماً يبلّغه الناس، ويقضي بمنع التعامل مع العلويين، بل بلزوم الامتناع عن التحدّث إليهم.

واستمرّت هذه الجرائم والمضايقات الشديدة حتى زمن الإمام الجواد سلام الله عليه، وكان عمر بن فرج الرخجي والياً في مكّة والمدينة، وكان يمعن في معاقبة كلّ من يحاول كسر طوق المحاصرة العباسية اللئيمة ضدّ العلويين، بحيث يصادر جميع أمواله ويجلده ضمن التحقير وإسقاط الشخصية وهدر الكرامة.

وقد ورد في التاريخ تعبير خاصّ لهذا النوع من العقوبة، فكان يقال: «أنهكه عقوبة وغرماً» أي حقّر شخصيّته وأهدر كرامته و «غرماً» إشارة إلى مصادرة أمواله، أي إنّ كل من كان على علاقة طيبة بآل عليّ بن أبي طالب سلام الله عليهم، كان جزاؤه أن يزاح عن الوجود، وأن تصادر أمواله كافّة.

واستمرّ التعذيب والتنكيل والإرهاب إلى زمن المتوكّل العباسي، حيث وصل الحال بقضيّة مصادرة الأموال إلى أنّ النساء الهاشميّات كن لا ـ يخرجن من بيوتهنّ لعدم امتلاكهن العباءات الكافية، بل كن جميعاً يصلّين بعباءة واحدة على الترتيب، وقد وصفتهن بعض الروايات بأنهنّ كنّ حواسر.

قال أبو الفرج في مقاتل الطالبيين: وكان المتوكّل شديد الوطأة على آل أبي طالب، غليظاً على جماعتهم، مهتمّاً بأمورهم، شديد الغيظ والحقد عليهم. ثم ذكر من ذلك كرب قبر الحسين سلام الله عليه وعفاء آثاره.

(إلى ان قال): واستعمل على المدينة ومكة عمربن الفرج الرخجي فمنع الناس من برّ آل أبي طالب، وكان لا يبلغه أنّ أحداً برّ أحداً منهم بشيء وإن قلّ إلّا انهكه عقوبة وأثقله غرماً، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلّين فيه واحدة بعد واحدة ثم ينزعنه ويجلسن على مغازلهن عواري حواسر! إلى أن قُتل المتوكّل فعطف المنتصر عليهم وأحسن إليهم ووجّه بمال فرّقه فيهم، وكان يؤثر مخالفة أبيه في جميع أحواله ومضادّة مذهبه طعناً عليه ونفرة لفعله.

وكان الوضع على هذه الصوره طيلة حكم المتوكّل، وكان الأئمّة المعصومون سلام الله عليهم قد اختاروا أسلوب الصبر والتحمّل دون أن يستفيدوا من قدراتهم المادّية أو المعنويّة في حين كان القضاء على السلطة العباسيّة برمّتها ليس بالأمر الصعب بالنسبة للأئمة سلام الله عليهم، وهم الذين يتمتّعون بأقرب المكانة لدى الله القادر المتعال.

وكان سبب ذلك التحمّل والصبر حسب ما جاء في الروايات امتحان الناس، حيث ينبغي أن يُميَّز الخبيث من الطيّب، ويرتقي من هو

جدير بالرشد والتكامل إلى أعلى المراتب، ويختبر ما يحمل من الإرادة، فالجميع يجب أن يعرضوا للفتنة والبلاء.

فكان الحكّام وأتباعهم من جهة، والأئمّة وأتباعهم من جهة أخرى يمثّلان فريقين يتعرّضان للاختبار الإلهى، لكى ينال فريقٌ الخزى والعذاب، ويستحقّ الفريق الآخر رضوان الربّ وجنان الخلد والرحمة الأبديّة، ولتكون حيواتهم خير نموذج وقدوة حسنة لمن أراد النجاة من الشيطان والموبقات والعذاب الأخروى.

إنّ كلا الفريقين روّضوا أنفسهم وربّوها، ولكنّ العلويين روّضوها بشكل، والعباسيين وشياطينهم وعتاتهم بشكل آخر، أى إنّ الجميع كانوا يستعدّون للقاء مصيرهم. وقصّة الامتحان والاختبار، والتكامل أو السقوط، قصّة لا تنتهى، واليوم وكلّ يوم يعيش الناس جميعاً فى ساحة الامتحان.

قَالَ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِى الْحَسَنِ سلام الله عليه فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، حَدَثَ بِآلِ فَرَجٍ حَدَثٌ؟ فَقُلْتُ: مَاتَ عُمَرُ. فَقَالَ: (الْحَمْدُ لِلّه) حَتَّى أَحْصَيْتُ لَهُ أَرْبَعاً وَعِشْرِينَ مَرَّةً. فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِى لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَسُرُّكَ لَجِئْتُ حَافِياً أَعْدُو إِلَيْكَ.

قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَوَلا تَدْرِى مَا قَالَ لَعَنَهُ اللَّهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَبِى؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: خَاطَبَهُ فِى شَيْءٍ فَقَالَ: أَظُنُّكَ سَكْرَانَ. فَقَالَ أَبِى:

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى أَمْسَيْت لَكَ صَائِماً فَأَذِقْهُ طَعْمَ الْحَرْبِ وَ ذُلَّ الأَسْرِ.

فَوَاللَّهِ إِنْ ذَهَبَتِ الأَيَّامُ حَتَّى حُرِبَ مَالُهُ وَمَا كَانَ لَهُ ثُمَّ أُخِذَ أَسِيراً وَهُوَ ذَا قَدْ مَاتَ لا رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدْ أَدَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ وَمَا زَالَ يُدِيلُ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ.

فالإمام اتّخذ من علم الله تعالى شاهداً عند الله نفسه، مشيراً إلى براءته من فداحة التهمة الموجّهة إليه.

استجابة دعاء الإمام الجواد

بقى عمر هذا فى منصبه والياً على المدينة ومكّة إلى ما بعد استشهاد الإمام الجواد سلام الله عليه. وبعد ذلك تمّت الاستجابة لدعائه، فبسبب وقوع بعض الأحداث والتقلبات السياسيّة، غضب المتوكل على عمر وأمر بمصادرة جميع أمواله وممتلكاته وخدمه، ثمّ ألقاه فى السجن، وقيده بما يزيد على ثلاثمائة كيلو من الحديد فى رقبته ويديه ورجليه، وأصبح عرضةً بأمر المتوكل للضرب وتصاعد عدد الجلدات فى كل يوم بصورة منتظمة.

إنّ الفرد يجب أن يحافظ على نفسه، فمن العذاب الدنيوى ما لا يخطر على بال ابن آدم، فكيف بالعذاب الأخروى؟!

وتمرّ الأيام، ولا يجد عمر بن فرج سوى الأغلال والإهانة والفقر ومضاعفة الجلدات حتى بلغ عددها ستّة آلاف جلدة، وتخلّصت منه البشرية ذات يوم، إذ رحل إلى حيث ما ينتظره من العذاب الأخروى إزاء ما خان المسلمين واضطهد أولياء الله تعالى وحارب قانون السماء، إرضاءً للطغاة الزائلين، ورغبةً فى بعض المال والسلطة.

اقتران العلم بالعمل

اقتران العلم بالعمل

«يا أبا ذر، يطلع قومٌ من أهل الجنة على قومٍ من أهل النار، فيقولون: ما أدخلكم النار وقد دخلنا الجنّة لفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون: إنّا كنّا نأمر بالخير ولا نفعله».

الخطاب فى هذا الفصل من وصيّة النبى صلى الله عليه وآله موجّه إلى أهل العلم.

يؤكّد الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّ العلماء «أفضل الناس أكثرهم فضيلة إذا سلموا» وكانوا نزيهين مخلصين. ولكنّهم إن كانوا

غیر ذلک، فهم أسوأ الناس، ویکونون مصداقاً لقول النبی الأکرم صلی الله علیه وآله فی هذه الوصیة، حیث أشار إلی أنّهم سیساقون إلی جهنّم، ثمّ یرون بعض الناس من أهل الجنّة کانوا قد تربّوا وتأدّبوا علی أیدیهم فنجوا، فیتوجّه الناجون إلی هؤلاء عن سبب دخولهم النار، فیجیبونهم قائلین: «إنّا کنّا نأمر بالخیر ولا نفعله».

صحیح أن نیل المراتب العلمیة العالیة وبلوغ درجة الاجتهاد بحاجة إلی مزید من الجهد، ولکن بلوغ الفرد لمرتبة (الإنسانیّة) یحتاج إلی جهد أکبر.

لقد نُقل عن الشیخ الأنصاری رحمه الله بأن قال: «أن یکون المرء عالماً فذاک أمر مشکل، ولکن أن یکون إنساناً فذاک أمر أشکل».

الشیطان وتزکیة النفس

فی قضیّة تزکیة النفس والتحوّل إلی إنسان، ثمّة عدو لدود یسمّی الشیطان، وقد أقسم علی عدم السماح لأیّ إنسان بالتقدّم والتطوّر فیما یتعلّق بالأمور المعنویّة، ولا ننسی أنّه لا قیمة للعلم وحیاة ابن آدم عموماً دون إحراز التقوی والالتزام بقوانین السماء، ولذا قال أحد الشعراء معبّراً عن هذا المعنی الکبیر:

لو کان للعلم من غیر التقی شرف

لکان أشرف خلق الله إبلیس

إنّ علم إبلیس أکثر من علم الناس، ولکنّه لا تقوی له، وتلک کانت مشکلته، ولذلک فإنّ من له علم، ولا تقوی له، فإنّه فی واقع الأمر لا یحقّق شیئاً فی إطار التقدّم والتطوّر الإنسانی.

إنّ الشیطان لا یتربّص بالقتلة والسرّاق والمفسدین فحسب، وإنّما سخّر کلّ قواه وأسلحته لصدّ العلماء والصالحین أیضاً، بل إنّ اهتمامه بتخریب شخصیّة العالم أکبر بکثیر من اهتمامه بسائر الناس، ذلک لأنّ العالَم برمّته قد یفسد بفساد العالِم. وقد قیل: «صلاح العالِم صلاح العالَم، وفساد العالِم فساد العالَم».

إنّ الدنیا تصلح وتعمر بصلاح العالِم، وفساد العالم یعنی خراب الدنیا وما فیها، لأنّ المفترض بأهل العلم أن یکونوا القادة الفعلیین للحرکة الإنسانیّة، فما بالک إذا فسد قادة المجتمع وأصبحوا یوجّهونه نحو الشرّ والفساد؟!

وقد قال الله عزّ اسمه فی القرآن المجید:

لقدْ مَنَّ اللهُ عَلی المؤمِنینَ إذْ بَعَثَ فیهِمْ رَسُولاً مِنْ أنْفُسِهِمْ یَتلُو عَلَیهِمْ آیاتِهِ وَیُزَکّیهِمْ وَیُعلِّمُهُمْ الکتابَ والحکمةَ.

فقدّم سبحانه التزکیة علی التعلیم، لأنّ العلم من دون التزکیة لا ینفع، وعلی المرء أن یکتسب القدرة لإصلاح نفسه، ومفتاح ذلک بید الإنسان نفسه.

صفات النبی

ورد فی کتاب (الإقبال) للسیّد ابن طاووس وبعض الکتب الأخری حدیث قدسیّ خاطب الله تعالی فیه أبانا آدم علیه السلام وبیّن له ثلاث صفات لنبیّ آخر الزمان صلی الله علیه وآله، فقال:

«لا فظٌّ، ولا غلیظٌ، ولا سخّاب».

وقال الله تعالی فی القرآن العظیم مخاطباً نبیّه الکریم:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ کُنتَ فَظًّا غَلِیظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ...

وقد قیل فی معنی الفظّ والغلیظ القلب: أنّ أحدهما یشمل الآخر، فإذا قیل: فظّ، شمل من کان غلیظ القلب، والعکس صحیح، وهما فی ذلک مثل کلمتی: الفقیر والمسکین من حیث الاستخدام. ولکن إذا استخدما أی الفظّ والغلیظ القلب معاً فیقصد بالفظاظة: الخشونة

الظاهرية، وبغلظة القلب: الخشونة الباطنية.

قد تعترض المرء قضية يغضب جرّاءها كلّ الغضب، ويحمل بسببها الحقد، إلّا أنّ ملامح الغضب لا تلوح على محيّاه، بل تراه يحافظ على هدوئه وابتسامته، فيقال لمثل هذا الشخص: غليظ القلب. وقد يحدث أن لا يغضب الفرد فى باطنه، ولكنّه يُظهر على ملامحه الانزعاج، فيقال إنّه فظّ.

وفى الحديث القدسى المتقدّم الذكر تمّت الإشارة إلى ثلاث من صفات النبى صلى الله عليه وآله، وهى أنّه ليس فظّاً ولا غليظ القلب ولا مرتفع الصوت فى الكلام. أى إنّ الرسول المصطفى كان رغم ما قد يتعرّض لما يزعجه وهو كثير جداً يحفظ احترامه فى الظاهر، ولا شكّ أنّ هذه الصفة ليست نفاقاً أو مجرّد تظاهر، بل هى من خصائص وفضائل المؤمنين، وقد جاء فى كلام أمير المؤمنين سلام الله عليه:

«المؤمن بِشره فى وجهه، وحزنه فى قلبه».

فلا يجدر بالإنسان أن يظهر على لسانه كلّ ما فى قلبه. فقد كان النبى صلى الله عليه وآله لا يحبّ العديد من أصحابه، وتارة يدلى ببعض الحديث لإتمام الحجّة، ولكنّه كان يهتمّ مطلق الاهتمام للمحافظة على كرامة الآخرين وصيانة الحدود، باعتبار أنّ الإنسان المؤمن لا يصحّ منه أن يبدى استياءه بشكل مباشر على الأقلّ لمن يشعر بالانزعاج تجاههم، وإنّما الفضيلة فى عدم إظهار ذلك حتى آخر لحظة من لحظات العمر. أما إذا كان فى الأمر ضرورة قصوى، كأن يكون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فذلك مما لا إشكال فيه.

لا ينبغى للمؤمن أن يكون فظّاً، ونظرته يجب أن تكون نظرة لطيفة ودودة، وكذلك يجب أن يصطبغ حديثه بصبغة الليونة، وهذه الصفات بمستطاع الناس تحقيقها فى أنفسهم، وهى قد تكون صعبة، ولكنّها غير مستحيلة.

تعاليم رسول الله

من الضرورى جدّاً مطالعة سيرة النبى المصطفى صلى الله عليه وآله فى جميع أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وقد ورد فى ذلك رواية عن المعصوم سلام الله عليه يصف فيها أخلاق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله:

«كان صلَّى الله عليه وآله خُلُقه القرآن».

كما ورد أيضاً أنّ قوماً من هوازن جاءوا لحرب النبى صلى الله عليه وآله وصمّموا على إبادة المسلمين، وكان جمعهم كبيراً، ولكنّهم خسروا الحرب وهرب رجالهم وخلّفوا نساءهم وراءهم، وأُسِر منهم حوالى ستّة آلاف شخص، فما كان من النبى الكريم إلا أن أطلق سراحهم جميعاً دون أن يتقاضى عن ذلك درهماً واحداً أو يشترط شرطاً، الأمر الذى دفع بكثير من اليهود والنصارى والمجوس إلى اعتناق الإسلام، وهذا نموذج من فضائل النبى صلى الله عليه وآله.

إنّ الأخلاق ليست بالبشر وحده، فرغم ما هو متعارف اليوم عن فضيلة طلاقة الوجه، ولكن هذه الخصلة لا تمثّل بمفردها خُلُق الإسلام.

لقد كان جميع أسرى هوازن مشركين، ولكن النبى صلى الله عليه وآله كان رحمة للعالمين جميعاً وليس للمسلمين والأقارب، وبناءً على ذلك أمرنا القرآن الكريم بأن نتّخذ نبىّ الإسلام قدوة وأسوة حسنة، وتلك كانت أخلاقه بعد الحرب.

فإذا كانت هذه أخلاق النبى صلى الله عليه وآله فهل يصحّ من مسلمَين تخاصما جرّاء خلافٍ ما قد زالت أسبابه، أن يظلّا متخاصمَين طيلة عمرهما؟ وهل هذا يمثّل الأخلاق الإسلامية؟

رسول الله فى أحد

لقد عانى النبى صلوات الله عليه وآله أشدّ المعاناة فى معركة أحد، عندما ضربه أحد المشركين فأصاب أسنانه بحجر فكسر رباعيّتيه،

فيما أصابه آخر في جبهته المقدّسة فجرحها حتى جرى دمه الطاهر على وجهه المبارك، كما انشقّت شفته وجرحت يده، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وغادر الجميع ساحتها، تألّم الصحابة للمنظر الدامي للنبي، واعتصرت لذلك قلوبهم، فقالوا له: يا رسول الله، إنّك مستجاب الدعوة، فادعُ على الكفّار والعنهم. ولكنّه ردّ على ذلك بالقول: «إنّي بُعثتُ رحمةً» ثم دعا الله ربّه مبتهلًا: «اللهمّ اهدِ قومي؛ فإنّهم لا يعلمون».

عقّب القاضي نور الله التستري رحمه الله بعد نقل هذه الرواية بإيراد عبارة لطيفة تنمّ عن الفطنة وعمق التحليل، فقال: إن رفض شخص أن يلعن غيره، فإنّه يختار الصمت على الأقلّ، إلا أنّ النبي وفضلًا عن عدم لعنه ألدّ أعدائه، فقد دعا لصالحهم وطلب من الله تعالى لهم الهداية، وهم الذين يستحقّون الدخول إلى جهنم.

يقول أكثر الناس: إنّ الإساءة من العدوّ مفهومة ويمكن تحمّلها، ولكن الإساءة من الصديق لا يمكن تحمّلها بحال وهي مغالطة شائعة في المجتمع بينما نرى النبي صلى الله عليه وآله لا يوجّه الإساءة والإهانة حتى إلى أعدائه.

يقول القاضي نور الله: لم يتوجّه النبيّ باللعن، بل طلب للكفّار المعذرة إلى الله تعالى وقال: إنّهم لا يعلمون.

نموذج آخر لسماحة النبي الأعظم

ذُكر أنّ أحد المشركين، وكان يدعى غورث بن حارث واسمه كان شائعاً في أيّام الجاهلية، ويعني جائع رأى النبي المصطفى صلى الله عليه وآله مستلقياً في ظلّ شجرة، فوصل عنده حتى وقف فوق رأسه وشهر سيفه وقال له: من ينقذك منّي يا محمد؟

فأجابه النبي من فوره: «الله» وقفز من مكانه، حتى انزلقت قدم غورث وسقط السيف من يديه، فسارع النبي إلى السيف ورفعه بوجه غورث وقال له: «الآن من ينقذك منّي؟» فأبدى ندمه على ما صدر منه سلفاً وقال للنبيّ: إحسانك يا محمّد!

فتنحّى النبي جانباً وعفا عنه، فأسلم غورث على يديه الكريمتين، ثمّ عاد إلى قومه وقال لهم: لقد عُدت من عند أفضل خلق الله.

أجل، لقد كانت أخلاق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من العظمة بحيث أذعن لها واعترف بعظمتها أعتى أعدائه، وحقيقة الأمر تشير إلى نوع من إتمام الحجّة الإلهية، فلا يكون ثمّة عذر لأحد في يوم القيامة: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ.

استحالة أداء حقوق الله كلّها

استحالة أداء حقوق الله كلّها

«يا أبا ذر، إنّ حقوق الله جلّ ثناؤه أعظم من أنْ يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن امسوا وأصبحوا تائبين».

يثير النبي المصطفى صلى الله عليه وآله في هذا المقطع من الوصيّة انتباه أبي ذر رضوان الله تعالى عليه إلى ثلاث قضايا، وهي: العبادة، والشكر، والتوبة.

كما يؤكّد صلى الله عليه وآله بأنّ حقوق الله سبحانه وتعالى على درجة من العظمة بحيث تعجز جميع المخلوقات عن أدائها، وإن استخدموا مطلق قابليّاتهم وواصلوا العبادة والشكر طيلة أعمارهم.

ومن لا طاقة له على تقديم الشكر المطلوب، يفترض به أن يلتزم بواجب التوبة والاستغفار والتضرّع إلى الله تعالى، لعلّه يجبر ضعفه وعجزه عن أداء حقّ الشكر لربّه.

ولعلّ إحدى فوائد وآثار الإقرار بالعجز عن أداء الشكر لله تعالى أن لا يصاب المرء بالغرور والعجب بطاعاته وعباداته.

العجب بالعبادة

من مؤامرات الشيطان ومكائده أنّه يستهدف عبادة ابن آدم ليمزج معها العجب والغرور، بمعنى أنّه قد لا يوسوس للعابد فى بعض المرّات بارتكاب هذا الذنب أو ذاك، وإنّما يقصد العبادة بحدّ ذاتها ليصيبها فى الصميم، ويأتى على إيمان الإنسان ويهدمه من أسسه. فقد يقوم المؤمن بأداء صلاته بنيّة خالصة وحضور قلبيّ مقترن بالخضوع والخشوع، ولكنّ الشيطان يدخل عليه من نافذة صلاته ليقول له: لا أحد يصلّى مثلك، ويمتدح ما عنده من الخشوع والتوجّه، حتى يلقى فى روعه العُجب والغرور، فيعبّد جادة الانحراف فى قلبه وعقله.

عن الإمام الصادق سلام الله عليه قال: قال رسول صلّى الله عليه وآله: بينما موسى عليه السلام جالساً إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان، فلما دنا من موسى عليه السلام خلع البرنس وقام إلى موسى فسلّم عليه. فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس، قال: أنت فلا قرّب الله دارك. قال: إنّى إنّما جئت لأسلّم عليك لمكانك من الله. قال: فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس؟ قال: به أختطف قلوب بنى آدم. فقال موسى: فأخبرنى بالذنب الذى إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسُه، واستكثر عملَه، وصُغر فى عينه ذنبه.

وروى عن الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال:

يدخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق فيخرجان من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق، وذلك أنّه يدخل العابد المسجد وهو مدلّ بعبادته ويكون فكره فى ذلك ويكون فكرة الفاسق فى التندّم على فسقه؛ فيستغفر الله من ذنوبه.

والعلّة فى ذلك تكمن فى أنّ الرجل الصالح قد أدّى عبادةً معيّنة فى المسجد، ولم يظلم أحداً، ولكنّه حينما همّ بالخروج، خرج وهو «مدلّ بعبادته» أى أنّه قد دخله العجب واغترّ بعبادته، وهذه الحالة لا تحتاج إلى حركة أعضاء وجوارح، وإنّما الله يَعلَمُ السِرَّ وَأخفى ولذلك خرج الصالح فاسقاً بعد أن كان عابداً.

ولكن الفاسق دخل المسجد فرأى صاحبه العابد بحالة من الخضوع والخشوع يتعبّد ويستغفر، ففكّر فى نفسه وقال: إذا كان هذا الصالح يتعبّد ويستغفر ويخشع ويخضع، فالويل لى مما ارتكبت من الذنوب، ثمّ تكرّست فى ذاته حالة من الندم والتوبة، علماً أنّه لم ترد فى الرواية كلمة تشير إلى أن الرجل الفاسق قد مارس الصلاة أو الدعاء داخل المسجد، وإنّما تمّت الإشارة فيها إلى مجرّد الندم والتوبة القلبية، وهذا ما اعتبرته الرواية الكريمة عبادة حقّة.

أجل، لا ينبغى الاغترار بالعبادة، لاسيّما وأنّ حقّ الله تعالى كبير إلى حدّ يعجز فيه العقل عن حدّه والعلم عن وصفه؛ مهما عظما واتسعا، كما تعجز كلّ عبادة وكلّ شكر عن مجاراة عظيم حقّ الله تعالى أو الدنوّ منه.

ولوصف المعنى نقول: لو أنّ رجلاً فاحش الثراء استضافه صديق له فقير، فإنّ هذا الأخير سوف لا يسعه تقديم ما يناسب صديقه الثرىّ من طعام ومجلس مهما جهد وسعى، رغم أنّه قد يبذل الكثير من الطاقة والجهد، فتراه يجد نفسه مضطراً إلى الاعتذار إليه على قصوره أو تقصيره، رغم علمه بأنّه حرص على أن لا يبدو مقصّراً، ذلك لأنّ له عقلاً يميّز به حقيقة أنّ ما قدّم غير لائق بضيفه.

وكذلك شأن العبادة، فمهما بدت لصاحبها متكاملة إلا أنّها غير لائقة على سبيل الحتم بمقام الربوبيّة الأجلّ الأقدس، هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الله سبحانه وتعالى قد قبل عبادات الأنبياء والصالحين وكثير من العباد، وهو غير محتاج لهم أو لعباداتهم.

ولكن لشديد الأسف نرى الشيطان لا يسمح للناس بالتنبّه والالتفات، فهم يتذكّرون ربّهم عند سماعهم موعظة واحدة، ولكن ما إن ينقضى عنهم وقت ليس بالكثير حتى تراهم ينحرفون عن جادة الحقّ، ويعودون بأمسّ الحاجة إلى موعظة أخرى تعيدهم إلى الصواب. إنّ غواية إبليس لا تختصّ بذنوب الإنسان الظاهريّة فحسب، لأنّ لمؤامراته ومكائده فيما يخصّ الذنوب الخفية والباطنية فاعلية أكبر، لذلك تراه يحرص أكثر ما يحرص على إفساد وتخريب باطن الإنسان وجوهره.

روى عن الإمام الصادق سلام الله عليه أنّه قال لعبد الله بن جندب فى معرض تحذيره له من الشيطان:

يا عبد الله؛ لقد نصب إبليس حبائله فى دار الغرور، فما يقصد فيها إلاّ أولياءنا.

إنّ من المفترض بمن تلقّى بعض العلم، وكان يتمتّع بذهنيّة وقّادة أن يحذر من مرض العجب والغرور، وأن يدرك أنّ ذهنيّة هذه إنّما هي نعمة ربانيّة قد منحت له من الله تعالى بلا مقابل. وبهذه الذهنيّة التي وهبها الله إيّاه استطاع أن يكون محطّ حاجة الناس، ولكنه بدلاً من أن يلبّي للناس حاجاتهم العلمية والثقافية، تراه ممتلئاً غروراً وعجباً، وهذا من حبائل الشيطان.

إن الشيطان لا يصارح الإنسان بهدفه ونيّته، وإنّما يتسلّل إليه شيئاً فشيئاً، فيلقّنه الغرور كلمة كلمة، ويغذّيه بالعجب لقمةً لقمة، وما يحول دون الإصابة بهذه الجراثيم القاتلة هو العلم بأن حقوق الله لا يمكن للإنسان تأديتها على الوجه المطلوب، وأنّ أعماله غير لائقة فی محضر الله وساحته القدسية، وأنّ من المفترض به أن يسعى إلى اجتناب المحارم، وإذا ارتكب ذنباً عليه أن يفرّ من ارتكابه ثانية ويتّجه إلى ربّه وحاميه. وإذا عصى الله وارتكب موبقة ولو أربعين مرّة، فما هو المبرّر والداعی لأن يصرّ على الموبقات ويعود لارتكابها ثانية؟! وكذلك لو عصى ألف مرّة، فعليه أن يهجر الذنوب ويحذر من ارتكاب المعصية الأولى بعد الألف!

تستحبّ «الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم» بعد تكبيرة الإحرام فی الصلاة وقبل بسملة سورة (الحمد) المباركة. وينبغی أن تقال بكلّ إصرار وعزم؛ ليكون المصلّی فی مأمنٍ من الشيطان وإلقاءاته.

لقد كان بمستطاع الله عزّ وجل أن لا يخلق الشيطان؛

لَوْ يَشَاء اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا

ولكنّه خلقه ليمتحن الناس ويفتنهم، ليُعلم مدى تمسّكهم بأوامر الله تعالى وابتعادهم عن نواهيه.

إنّ الله وهب الإنسان العقل، وغرس فيه الشهوة، وخلق الشيطان يوسوس له، ومنح الإنسان أيضاً الإرادة، ليكتشف ذاته ويرى ماذا يعمل ويختار!

فكما أنّ السوق يعتبر ساحة للتنافس بين التجّار، وكما أنّ من لا يرغب فی المنافسة، فليس له دخول مضمار السوق، كذلك هی ساحة الدنيا ومضمار الكدح إلى الله تعالى، فكيف يصحّ تصوّر إنسانٍ فی الحياة الدنيا، وهو يرفض الالتزام بقوانين المضمار أو يتجاهل حقيقة الهدف؟

إنّ الإنسان المؤمن يمتاز حتى فی الأمور المادية بالسعی للحصول على الثواب من عند الله تعالى؛ بسبب نيّته، على الضدّ من الإنسان غير العارف بربّه، إذ لا شكران لسعيه مهما بنى وشيّد وجمع وفرّق.

إنّ المدرسة والمسجد والحسينيّة وغيرها من مصاديق الخير مضامير السباق إلى كسب رضا الله تعالى واكتساب الفضل والنعم الإلهيّة الكبرى، ومن يتقدّم على منافسه هو الذی يجاهد الشيطان فعلاً، ويجاهد بما أوتی من إمكانات.

صحيح أنّ الناس لا قدرة لهم على أداء حقّ الله تعالى فی العبادة، إلا أنّ الله تعالى قد جعل لهم من الخصائص والفرص ما تقرّبهم إليه زلفى، ومنها: أنّه تبارك اسمه قد شرع للمسلمين صوم شهر رمضان ومنحهم فرصة شهر رمضان؛ ليعبّدوا به طريق الوصول إلى الجنة.

قال رسول الله صلّی الله عليه وآله:

«أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة».

ففی كلّ نفس للإنسان ثواب، وفی كلّ نومة جزاء حسن.

وأكثر من ذلك: أنّ الله يحبس الشيطان فی هذا الشهر المبارك.

وهذه كلّها امتيازات وألطاف إلهية غير متناهية على الناس، يتوجّب عليهم الاستفادة القصوى منها.

روی عن الإمام الحسين عليه السلام، قوله:

إنّ الله عزّ وجلّ اخفی أربعة فی أربعة: أخفی رضاه فی الحسنات، فلا يستصغرنّ أحد منكم حسنة، لأنّه لا يدری فيم رضا الله تعالى. وأخفی سخطه فی السيئات، فلا يستصغرنّ أحدكم سيّئة، فإنّه لا يدری فيم سخط الله...

فلا يستصغرنّ المرء أيّة عبادة، مثل الاستغفار قبل الشروع بالدرس، أو قراءة صغار السور القرآنية قبيل النوم.

ومن ناحيـة أخرى، لا يجدر بالفرد العاقل استصـغار أىّ نوع من المعاصـى، وإنّما المفترض المحافظة على النفس فى مواجهة الشـيطان ومنعه دون اقتحامه القلب واحتلاله.

عبادة عابد بنى اسرائيل

ورد فى الروايات:

«أنّ رجلًا فى بنى إسـرائيل عبـد الله أربعين سـنة، ثم قرّب قرباناً، فلم يُقبل منه، فقال لنفسه: ما أُتيت إلّا منكِ، وما الـذنب إلا لكِ. قال فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: ذمّك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين سنة».

ولم تكن عبـادته بمعنى أنّه كـان يصـلّى إحـدى وخمسـين ركعـة فى اليوم، أو يصوم شـهر رمضان فى كلّ عام، وإنّما كان يطلق على العابـد عابـداً إذا صام نهاره وقام ليله، وقـد يكون من السـهل قول ذلك، ولكن أن يقوم رجل بهذا النوع من العبادة لمدّة أربعين سـنة، فإنّنا لا نجد نظيراً له إلا بما لا يتعدّى رقمه رقم عدد أصابع اليد من بين الملايين من بنى إسرائيل.

ترى ماذا لو أراد المرء أن يعبـد على هذه الطريقة دائماً؟ إنّه سـيتعب ولعلّه يمرض يوماً أو لا يجد ما يقتات به إذا ما واصل العمل بهذا الأمر. فالمهمّـة صـعبة للغايـة، وهـذا العابد زاول عبادته وقضـى أيّامه المديدة بهذا الشـكل من العبادة بمعناها الواقعى. وذات يوم قرّب قرباناً، وكانت الأمم السابقـة تعرف قبول قرابينها بعلامات خاصّـة بها، مثل أن تنزل ناراً فتحرق القربان، ولكن قربان هـذا العابـد لم يقع موقع القبول، أى أنّه رُفض بعـد أربعين سـنة من العبادة، وبعد أن علم العابد عدم تقبّل قربانه، عاد باللوم على نفسه وقال فى نفسه: لابدّ من عيب فى عبادتى، أو أنّها كانت غير خالصـة، لأنّ الله تعالى لا يرفض أحداً أو طلب أحدٍ دون دليل وحكمة، فأعلمه الله تعالى له أنّ قيمة ملامته ومؤاخذته لنفسه أكبر من قيمة عبادته طيلة تلك السنوات.

فإذا كانت عبادة هـذا العابـد على امتداد أربعين سـنة على هذا الشـكل، فما أحرج موقع عوامّ الناس الذين لا يعرفون بم يفترون، ولأىّ سبب يتكبّرون؟!

لقـد كان هـذا العابد محظوظاً حين علم بعد أربعين سـنة من العبادة أنّ أعماله غير ذات فائدة، ولكن ماذا يحلّ بالإنسان إذا جهل واقعه وواجهته الآخرة وهو لا يملك الفرصة فى جبران مافاته؟

إنّ الأئمـة المعصومين سـلام الله عليهم حـدّثوا أتبـاعهم بحكايـة هـذا العابـد ليفتحوا عيونهم وآذانهم لـدرك الحقائق الإلهيّـة والمثوبة الخاصّة بالإنسان.

عبادة أمير المؤمنين

دخل الإمام الباقر عليه السـلام على أبيه الإمام السـجّاد سـلام الله عليه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد، فرآه قد اصفرّ لونه من السـهر، ورمضت عينـاه من البكـاء، ودبرت جبهته، وانخزم أنفه من السـجود، وورمت ساقـاه وقـدماه من القيـام فى الصـلاة، فقـال عليه السلام:

فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء، فبكيت رحمة له، فإذا هو يفكر فالتفت إلىّ بعد هنيئة من دخولى، فقال: يا بنىّ أعطنى بعض تلك الصـحف التى فيها عبادة على بن أبى طالب عليه السـلام. فأعطيته فقرأ فيها شـيئاً يسيراً، ثم تركها من يده تضجّراً وقال: من يقوى على عبادة علىّ بن أبى طالب سلام الله عليه.

إنّ جميـع أعمـال الإنسـان العباديـة قاصـرة فى محضـر الربّ الجليـل. وإذا رسـخت هـذه القاعـدة فى الأذهـان، فلاـ شـك أنّ الـذنوب ستتضاءل، هذا فضـلًا عن أهميّة إدراك أنّ ما يقوم الأشخاص به من الأعمال، والموفقيّة التى تدفعهم إلى ذلك إنّما هى موفقيّة ربانيّة تقف وراءها الرحمـة والنعمـة والفضل الإلهى، فالدراسـة والعبادة والذهنيّة الصالحة والسـعى الدؤوب، إنّما هى توفيقات إلهيّة مباركة،

ولولاها لاستحالت فرصة إنجاز أیّ عمل صالح.

نعم الله لا تُحصى

«إنْ تعُدّوا نعمةَ اللهِ لا تُحصوها».

إنّ نعم الله تعالى على الوجود عموماً والإنسان خصوصاً من الكثرة بحيث يعجز العادّون عن حصرها، كما يعجز الإنسان عن إبداء الشكر لله تجاهها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

...« وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد»

إنّ أكبر نعمة تفضل الله بها على المؤمنين هی نعمة الإيمان بالربّ الواحد الخالق المتفضّل العادل، ما يحتّم عليهم إبداء الشكر على أنّهم ليسوا من الكفّار. أما أولئك الذين عكفوا على عبادة غير الله طيلة أعمارهم فسيصابون بالحسرة العظمی فی يوم القيامة، كما سيرى المؤمنون آنذاك عظمة نعمة الإيمان التی تفضّل الله بها عليهم.

فالإيمان نعمة كبرى، ولتحقّقها شروط كثيرة، مثل: الزمان المناسب، أو كون الأبوين مؤمنين، والمكان المناسب، فيتكوّن من هذه الشروط وغيرها مزيج رائع ينتج عنه انخراط الفرد فی سلك الإيمان.

نعمة التوبة

قلنا: إنّ الإنسان أساساً يفتقر إلی القدرة علی شكر النعم الإلهية. والأمر الوحيد الذی يستطيع إنجازه، هو السير علی طريق التوبة والاستغفار «أمسوا وأصبحوا تائبين».

نعم؛ إنّ للتوبة أن تجبر النقائص والعيوب البشرية، وتغطّی أخطاء الإنسان.

لقد ورد فی الأثر الموثّق:

أربع من كنّ فيه لم يهلك علی الله بعدهنّ إلا هالك: يهمّ العبد بالحسنة فيعملها، فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيّته. وإن هو عملها، كتب الله له عشراً. ويهمّ بالسيئة أن يعملها، فإن لم يعملها لم يكتب عليه شیء، وإن هو عملها أُجّل سبع ساعات...

فإذا ما استلقی شخصان يريدان النوم، وكان فی نيّة أحدهما أن يستيقظ فی منتصف الليل ليتناول الخمر والعياذ بالله وكان فی نيّة الثانی أن يقوم فی الوقت ذاته لأداء صلاة الليل ولم يستيقظا، فإنّه سيكتب للثانی ثواب القيام بصلاة الليل، فی حين لا يكتب للأوّل أیّ ذنب.

إنّ الذنب لا يدوّن فی كتاب الإنسان حتی مرور سبع ساعات، حيث يعطی الفرصة الكافية، لعلّه يقوم بعمل صالح، فيمحی ما ارتكبه من السوء؛ قال الله سبحانه وتعالی:

إنّ الحسناتِ يُذهبْن السيّئات.

نعمة الولاية

أتباع مدرسة أهل البيت سلام الله عليهم يعيشون اليوم فی عصر الغيبة؛ غيبة الإمام المهدی الموعود عجل الله تعالی فرجه الشريف، وإنّ واحدة من نعم الله تعالی علی الشيعة هی الوجود المقدّس لمولانا صاحب العصر والزمان صلوات الله عليه، الأمر الذی يوجب عليهم إبداء مزيد من الشكر تجاهه، وإن من أبرز مصاديق الشكر هو إدخال السرور علی قلب الإمام؛ وهو حجّة الله فی أرضه.

ولعلّ أكبر ما يدخل السرور علی قلبه سلام الله عليه هو القيام بالمسؤوليات الشرعية، أی ضرورة أن نعی هذه المسؤوليات وندرك عمقها ومدی تأثيرها والعمل بموجبها.

وبهذا الصدد يُنقل عن الشيخ مرتضی الأنصاری رحمه الله تعالی أنّه كان يعمل كاسباً لمدّة ساعتين كلّ يوم من أيام دراسته للعلوم

الدينيّة، وذلك لكى يجنى بعض المال الذى يضمن لنفسه إمرار معاشه أثناء دراسته.

وذات يوم شوهد إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف جالساً مع الشيخ الأنصارى الذى كان منهمكاً فى بيع أحد الأقفال، فقال الإمام سلام الله عليه فى معرض ثنائه على طريقة تعامل الشيخ أثناء البيع بشكل نابع من نفس مخلصة وسلوك ورع، قال لمن كان حاضراً: هكذا كونوا لأقدم بنفسى عليكم.

إنّ الشيخ الأنصارى رحمه الله لم يكن معصوماً، ولا ابن إمام معصوم، بل لم يكن من الذريّة الطيّبة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وإنّما قيل إن نسبه يعود إلى الصحابى الجليل جابر بن عبد الله الأنصارى رضوان الله عليه، فكيف بلغ هذه المرتبة السامية؟ لغد بلغها رحمه الله بسبب النهوض بمسؤولياته كإنسان مؤمن تابع لمدرسة آل البيت سلام الله عليهم؟

الموت يأتى بغتةً

الموت يأتى بغتةً

«يا أبا ذر، إنّكم فى ممرّ الليل والنهار فى آجالٍ منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتى بغتةً، ومَنْ يزرع خيراً يوشك أنْ يحصد خيراً، ومن يزرع شرّاً يوشك أنْ يحصد ندامةً، ولكلّ زارع مثل ما زرع».

من الواضح هنا أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى هذا المقطع المبارك من وصيّته الشريفة يصوّر لأبى ذر رضى الله عنه الإنسان بكونه عبارة عن كائن موجود فى ممرّ الليل والنهار، أى أنّه محكوم بحكومة الزمن، ومثل هذا التعبير لم يرد فى الروايات والآيات والأشعار والأمثال إلا هنا وفى بعض أقوال أمير المؤمنين سلام الله عليه. فكان وصف الليل والنهار بكلمة (ممرّ) ابتكاراً نبويّاً رائعاً على الصعيد البلاغى.

وفى هذا التعبير البلاغى نقطتان مهمّتان على المستوى الأدبى والمعنوى.

فمن الناحية الأدبية، يمكن تصوّر كلمة (ممرّ) على اعتباره مكاناً، وكذلك يمكن تصوّره زماناً، أى أنّ محل حضور الإنسان مكان مرور الزمان، وهو فى الوقت ذاته ظرف زمنىّ لطىّ لحظات الزمن.

أما الناحية المعنويّة؛ فهى أنّ الليل والنهار بمثابة السيل الذى يدفع ابن آدم ضمن تيّاره الهادر، وقد وضع المرء فى هذا الحيّز وضعاً جبريّاً، وكذلك هو حال وجوده فى هذا المعبر والممرّ.

آجال منقوصة

للأجل معنيان: فطول العمر ومدّة حياة الإنسان فى هذه الدنيا تعتبر أجلاً. وكذلك نهاية العمر حيث ينقطع عن الحياة تسمّى (أجلًا)؛ وعليه فإنّ شأن تواجد ابن آدم فى (ممرّ) الليل والنهار كشأن بعض الأشياء المحدودة التاريخ والصلاحيّة.

كما تستعمل كلمة (النقص) فى اللغة العربية على ثلاث طرق؛ فهى تستعمل فعلاً لازماً، ومتعدّياً لمفعول واحد، ومتعدّياً لمفعولين.

و(النقصان) فى هذا الحديث الشريف استعمل بمعنى اللازم والمتعدّى.

فهو من ناحية يرى أنّ عمر الإنسان وفقاً لشرائط الخلقة أمر محدود وزمنىّ، فكان نقصان الآجال لازماً محتوماً.

ومن الجانب الثانى، ثمّة يد وإرادة ملؤها القوّة والقدرة تتحكّم بطبيعة عمر الفرد وحدوده، قلّة وكثرة، وطبقاً لنوع حياة الفرد ذاته. فالنقصان فعل مباشر من جانب الله الحقّ تعالى، ومفعول نفس العمر.

إنّ يد الله القادرة المقتدرة تنقص فى عمر الإنسان، وتغيّر مقداره، أىّ أنّ هذا العمر ناقص؛ وهناك منقّص قادر مستولٍ عليه، تماماً كثروة التاجر التى تزداد حين يستثمرها بنجاح، وتنقص حين يتّخذ منها موقفاً دون ذلك، أو عمد إلى تجميدها وصرفها فى أمور غير

تجارية.

وكذلك شأن قابليات وإمكانات الإنسان، ففي يوم تكون قدرته على الإدراك في مستوىً سامٍ، وفي اليوم التالي يعتورها النقص والضعف.

ورغم أنّ انقضاء عمر الإنسان وزواله عادة ما يكون في غفلة منه، إلا أنّه يتقدّم في كلّ لحظة ويطوى مسيرته في سرعة بالغة، وبين هذا وذلك هناك مجموعة عوامل ومقدّمات توجب للعمر البركة والإزدياد، مثل صلة الرحم، أو العفو عند المقدرة، وغير ذلك مما تناولتها الأحاديث والروايات الشريفة.

أعمال محفوظة

يواصل النبى المصطفى صلى الله عليه وآله حديثه الشريف ليؤكّد أنّ الإنسان يعبر من هذا الممرّ الزمانى وجميع أعماله تحفظ وتسجّل في صفحة مصيره بشكل لا يفوت على حافظها شيء منها، ولا هو من أهل الغفلة فتغادره.

إنّ أعمال ابن آدم؛ الكبير منها والصغير، ورغم أنّه قد ينساها أو تمحى من ذاكرته، لكنّها لن تمحى من كتابه الخاصّ، لاسيّما وأنّها ستكون مادّة وموضوع محكمة العدل الإلهى الكبرى في يوم القيامة.

وتستمرّ حركة الحياة فى جوهر الإنسان وبدنه، حتى تستولى عليه قبضة الموت الهائلة «الموت يأتى بغتةً»، فيُستدعى ابن آدم إلى ساحة المحكمة الموعودة بواسطة الموت، فيواجهه هناك بجميع أفعاله وأقواله وأفكاره بعد أن تجمع كلّها فى ملفّ خاصّ يحمل اسمه هو دون غيره، أمّا قاضى هذه المحكمة فلا تأخذه سنةٌ ولا نوم، ولا غفلة عن أيّة قضيّة من القضايا، وهو الذى لا تخفى عليه خافيه.

أقول: إذا كان من المقرّر أن يحاسب شخص ما فى الدنيا ويحاكم على أعماله ونواياه؛ فإنّه لاشك سيتعرّض لأزمة نتيجة الخوف والترقّب والاضطراب ويستولى ذلك على كلّ وجوده، حيث تقدح فى زوايا مخيّلته صورة تلك المحاكمة، ولعلّه يفقد السيطرة على حواسّه، فهو يتوقّع حلول وقتها فى كلّ لحظة، فإذا كان نائماً ثم استيقظ فكّر من فوره بالمحاكمة، بل إنّ مستوى قلقه المتزايد يسأله باستمرار عن موعد انعقادها المرتقب، ومتى يسوقه حرسها إلى ساحتها وبأيّة حالة سيساق، حتى يصل به الأمر إلى أنّه قد يفقد معه لذّة الطعام والنوم والاستراحة والتركيز الذهنى، فتراه إذا ضحك، ضحك ضحكة ملؤها المرارة، وأصبحت أفراحه أفراحاً ظاهرية...

مثل هذه الحالات تستولى على من اضطرّ للمثول أمام محكمة دنيويّة، فكيف بمن سيرغم على الحضور فى محكمة الآخرة، فهل ستظهر عليه ملامح الراحة والاستقرار النفسى؟ أوليس ما يبدو على الإنسان الناقص العمر، المحفوظة أعماله من السعادة والفرح إلا نتيجة غفلته وجهله ولا مبالاته؟! لاشك أنّ جميع الناس مصابون بداء الغفلة عن حقيقة ما يسيرون باتجاهه، ولا شك أيضاً أنّ درجات إصابتهم بهذا الداء متفاوتة.

ضحكة النبى الأخيرة

ذكرت الروايات الكريمة أنّ النبى المصطفى صلى الله عليه وآله وفى ليلة المعراج حيث كان مع جبرائيل رأى جهنم وما فيها من العذاب، وبعد ذلك لم يُرَ ضاحكاً أبداً.

ولكن هناك كثير من الناس يحشرون أنفسهم فى مستنقعات الغفلة والجهل، فيظهرون بملامح الفرح والضحك، ولو أنّ الناس عرفوا أنّهم سيستدعون إلى محكمة الآخرة، لسُلب منهم الفرح، ولترقّبوا الموت فى كلّ آن ومناسبة وحالة.

فتارة يفاجئ الموتُ الإنسان فى منتصف الليل وهو نائم، وتارة يباغته وهو يتعبّد ساجداً، وأخرى ويداه منغمستان فى المعصية، فأين هذا النوع من الموت، من النوع الآخر، حيث تقبض روح الإنسان وهو غارق فى التعبّد ليلة القدر يذكر ربّه ويردّد قوله: «بك يا الله»؟

إنّه ليس ثمّة إنسان يعلم متى وأين سيموت. «والموت يأتى بغتةً».

الآخرة وظاهرة النسيان

من القضايا الأخرى الخاصّة بيوم القيامة، هى أنّ ابن آدم وبداعى نسيانه، تراه لا يتذكّر كثيراً من أعماله الصالحة أو الطالحة، ولذلك فهو لا- يتفهّم فى بادئ الأمر العديد من موارد اتّهامه، ولكن للمحكمة الأخرويّة قاضٍ لا يضلّ ولا ينسى ولا يحيد عن الحقّ مقدار أنملة، إنّه سوف تحضر أمام الملك الحقّ ملفّات الصالحات والسيّئات التى نسيها الإنسان.

ولعلّ المرء قد غفل عن بعض الممارسات الدنيويّة ومُسحت من أمام عينيه، ولكنّها متكدّسة فى ضميره، وبمجرّد إحضاره ووجوده فى ساحة المحاكمة وانفصاله عن الجاذبيات المادّية والدنيويّة، سيلاحظ تلكم الأعمال والممارسات ماثلة فى وجوده بحيث لن تكلّف المحكمة نفسها للضغط عليه من أجل كسب اعترافه بما اقترفت يداه، وإنّما سيكون مجرّد وقوفه فى تلك الساحة إقراراً واعترافاً مطلقاً، حتى أنّك لا تسمع إذ ذاك إلا همساً.

إذا تمكّن الإنسان من تكريس هذه الحقائق فى نفسه وتسجيلها فى ضميره بصورة حيوية بحيث يفعّلها متى يريد وكيف يريد، فإنّه حينذاك سيكون هدفه الأكبر فى الحياة إنجاز أعمال الخير وتسجيل الصالحات فى ملفّ أعماله، وإذا نحّى المرء حجب الغفلة جانباً، واستثمر ذكاءه، ولم يتصوّر المستقبل (الموت والآخرة) حقيقة بعيدة بل رآه قريباً، فإنّه سيتأكّد من شديد حاجته للأعمال والنوايا الصالحة. «ومن يزرع خيراً يوشك أن يحصد خيراً».

الاستعداد للموت

كان رجل ثرىّ يعيش فى مدينة كربلاء المقدّسة، وقد حدّث قريب له قال: مرض الرجل ذات يوم مرضاً شديداً، نُقل على أثره إلى المستشفى، فبقى فيها مدة، وكنّا نذهب إلى عيادته، فنصحه بعض منّا بضرورة أن يكتب وصيّته، لاسيّما وأنّه رجل غنىّ ولابدّ له من تخصيص جزء من أمواله لصرفها فى سبل الخير والبرّ لتكون له ذخيرة طيّبة لآخرته، ولكنّه كان يرجئ ذلك إلى وقت آخر أو بعد شفائه وخروجه من المشفى، بينما كان المحيطون به يشجّعونه على كتابة الوصيّة مؤكّدين له قدرته على كتابة ما يريد، وإذا ما رغب فى تعديلها أمكنه ذلك، وبعد إصرار متواصل منهم تنازل واستعدّ أن يبدأ بكتابة الوصيّة، فجىء له بقلم وورقة، وكتب قسماً من وصيّته، ولكنه تراجع بعد ذلك وترك الكتابة! مؤكّداً مع نفسه أنّه سيعاود كتابة الوصيّة بعد نيله الشفاء، ولكن الأجل لم يمهله، ولم يُرَ إلا ميّتاً فى صباح اليوم التالى...

إنّ على المرء أن يكون مستعدّاً على الدوام لهذه المواجهة الحتميّة، ذلك لأنّ الاستعداد للموت له تأثير كبير جداً على سلوكه. فمن كان كذلك فى حياته، كان سلوكه بصورة عامّة يتّسم بنوع من الحذر والاحتياط، ومثل هذا الإنسان لا يجرؤ أبداً على الخوض فى المعاصى والرذائل الأخلاقيّة؛ ولذلك فهو حذر فى كلّ لحظة من شطحات لسانه وبطش يده، وزيغ عينيه وطيش أذنيه، وانسياب أمواله فى طريق الذمّ.

إنّ مراد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله من قوله المبارك: «الموت يأتى بغتةً» توضيح قاعدة وقانون يستوعبان الناس جميعاً، وهو أنّ الموت أمر حتمىّ ومباغت، وكون الجميع عاجزين عن مواجهته. ولا- نجد إنساناً مسلماً أو غير مسلم له القدرة على مواجهة هذه الحقيقة والقانون الثابت، بل يستسلم له بصورة مطلقة، وبعدما تزاح عن قوة إدراكه حجب الجهل والغفلة، تستولى عليه الحسرة وتبدأ مسيرة الندم فى انطلاقته باتجاه الآخرة، وعندها سيفهم ماذا فرّط طيلة حياته، وماذا حمل من أثقال لا نفع لها على ظهره، وكم أضاع من حسنات كان بامكانه جمعها، وهو إذ ذاك بمسيس الحاجة لها.

قيل فى سبب أن بعض الناس يموت وعيناه مفتوحتان، بينما بعض يموت مغمض العينين: أنّ الموت لا يسمح لهذا أو لذاك بأن يغيّر وضعيّة عينيه أبداً.

وقد قیل إنّ شخصاً أصیب بالسکتة القلبیة ومات وهو یؤدّی صلاة الفجر، فرآه أحد ذویه فی منامه، فسأله عن طبیعة موته، فأجابه قائلًا: کنت منشغلًا بقراءة کلمة من إحدی الآیات، فتفوّهت بحرف من تلک الکلمة فی الدنیا، وبحرفها الآخر فی عالم ما بعد الدنیا.

نعم إنّ قانون مباغتة الموت لا ـ یمهل ابن آدم حتی لمجرّد التفوّه بحرف واحد فقط، فلماذا التجاهل، ولماذا الغفلة، ونحن نعلم بمحدودیّة أعمارنا وتناقصها؟!

أسباب ضحالة الفکر

إنّ ما یعیق الإنسان دون استثمار عقله أو أن یفکّر فی عاقبته أمران؛ الأوّل: الجهل. والثانی: الشیطان. فهذان العاملان غالباً ما یتسبّبان فی ضحالة الفکر وعیب السلوک.

فالشیطان من ناحیته خبیر بکیفیّة تحقیق أهدافه المشؤومة، دون أن تتضاءل رغبته فی التسلّط علی الإنسان والتحکّم به أبداً، ولکنّ الله سبحانه وتعالی لم یجعل له سلطاناً أو سبیلاً ـ علی ابن آدم یجبرانه علی الخنوع له. کما أنّ إرادة الکائن البشریّ وعلمه کفیلان بأن یستطیع وفقهما مواجهة الوساوس الشیطانیة والتحصّن دون أذاه ومؤامراته المتعدّدة الأشکال والألوان.

إنّ الله جل ثناؤه قد جعل فی داخل الإنسان (مصباحاً) یضیء له الظلمات التی قد تحیط به، فیعرف ویتحسّس به طریقه القویم من الطرق الملتویة، وجعل مفتاح هذا المصباح بید الإنسان دون سواه، وهو الذی ینبغی له أن یفعّل هذا المصباح بإرادته، فیستطیع أن یوقده أو یطفئه، وهذا المصباح هو (العقل) القادر علی هدایة الإنسان، ومن ثم یمکن القول بأن العقل هو جناح ابن آدم، بینما الشهوة جناح الشیطان.

لقد سئل أمیر المؤمنین سلام الله علیه عن خیر خلق الله بعد أئمّة الهدی ومصابیح الدجی، فقال صلوات الله علیه:

«العلماء إذا صلحوا».

قیل: ومن شرّ خلقٍ بعد إبلیس وفرعون ونمرود وبعد المتسمّین بأسمائکم وبعد المتلقّبین بألقابکم والآخذین لأمکنتکم والمتأمّرین فی ممالککم؟ قال:

العلماء إذا فسدوا، هُمُ المظهرون للأباطیل، الکاتمون للحقائق»....

لم یقل الإمام سلام الله علیه وفق هذا النصّ الشریف بأنّ أفضل الناس من یؤدّی صلاة اللیل، أو یعطی الخمس من أمواله، وغیر ذلک ممّن یقومون بالأعمال الصالحة، رغم فضلها وعظمتها، ولکنّه أکّد أنّ أفضل عباد الله تعالی هم العلماء إذا فعّلوا عقولهم وأطاعوا مولاهم وأصبحوا صالحین.

العالم الصالح والعالم الطالح

الحسین بن روح والشلمغانی هما من علماء الإسلام. وکانا یتمتّعان بمستوی من العلم الرفیع، إلا أنّ جوهر الصلاح نما فی الحسین بن روح فقط، علی عکس شخصیّة الشلمغانی الذی أخذ یبتعد تدریجیاً عن الصلاح، رغم أنّه کان أکثر شهرة من ابن روح، کما کان الناس یرجعون إلیه فی المسائل الشرعیة، ولکننا نری فی نهایة المطاف أنّ الحسین بن روح أصبح النائب الخاصّ الثالث للإمام صاحب العصر والزمان عجل الله تعالی فرجه الشریف.

لقد کان هذان الشخصان وفی سنین مدیدة متصدّین لحلّ مشاکل الناس ویفتونهم بمسائلهم الشرعیة، ولکن کلّما مرّ الوقت کان الحسین بن روح یقترب من الخیر والصلاح درجاتٍ، بینما الشلمغانی یبتعد عن الحقّ وتضیع علیه الحقائق وتلتبس، إلی أن بلغ الأمر أن خرج التوقیع الشریف من الإمام المهدیّ عجّل الله تعالی فرجه الشریف یقضی بلعن الشلمغانی والتبرّؤ منه.

هنا لا ـ ینبغی التصوّر بأنّ الحدیث المتقدّم عن أمیر المؤمنین سلام الله علیه قد ورد بحقّ المراجع وعلماء الطراز الأوّل فقط، بل هو

حديث يشمل جميع الذين يكتسبون العلم، كلّ بمستواه؛ ما يعنى أنّ على طلاب العلوم المختلفة من جامعيين وحوزويين وغيرهم أن يطبّقوا هذا الحديث الوارد عن أمير المؤمنين سلام الله عليه على أنفسهم ويجعلوا منه نبراساً وضياءً ملهماً لهم.

لا ننسى أنّ موضوع «العالم» أمر نسبىّ، أى أنّه مع وجود تفاوت كبير بين درجات العلماء، فإنّهم يجتمعون فى تسميتهم علماء. فالطالب المبتدئ يجب عليه أن يحذر ويتّقى الابتعاد عن الصلاح والنزاهة، بنفس المقدار الذى يتوجّب على أكبر العلماء وأشهرهم. فالجميع ينبغى لهم أن يسعوا إلى الجمع بين العلم والصلاح، وبين التربية والتعليم فى أنفسهم.

ولإنجاز هذه الفريضة لا تكفى مجرّد النيّة والقرار، وإنّما لابدّ من السعى المتواصل وبذل الجهود الحثيثة اللازمة فى عمليّة التطبيق.

إنّ الدعاء بمنزلة التصميم، وهو من ضرورات إنجاح العمل، ولكنّه لا يكفى وحده، كما لا يصحّ الاكتفاء بالدعاء فى تنفيذ أيّة مهمّة.

يتحتّم على الإنسان أن يخوض صراعاً مريراً مع الشيطان ومع نفسه الأمّارة وشهواته طيلة عمره.

إنّ الجميع يتمتّع بوجود المؤهّلات الذاتيّة لبلوغ منزلة الحسين بن روح، بل أعلى منها أيضاً، لاسيّما إنّ هذا النائب العظيم لم يتلقَّ أيّة ضمانة فى عدم بلوغ شخص مّا درجة أسمى من درجته، ولكنّ مفتاح الوصول منوط بالإنسان ذاته.

ففى الحديث المتقدّم المروىّ عن الإمام، أمير المؤمنين سلام الله عليه تمّت الإشارة إلى أنّ شرّ الناس عند الله هم «العلماء إذا فسدوا»؛ ومن ثمّ فإنّ تحديد واقع العالِم ومصيره مرتهن به ومتعلّق بإرادته، فإذا سعى وجاهد ونجح فى مهمّة الجمع بين العلم والصلاح، أصبح من أفضل الناس، أمّا إذا فشل فى جمع الصلاح والخير إلى علمه، وسقط فى الصراع مع النفس الأمّارة بالسوء والشيطان، فإنّه لاشكّ سيصبح الكائن الأسوأ فى المجتمع البشرى برمّته.

وهاتان العبارتان خير الناس، وشرّ الناس دليلان واضحان على ما لإرادة الإنسان من دور أساسىّ مهمّ ومؤثّر فى تحديد مصيره. ولابدّ من الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية والتربويّة فى صياغة الشخصيّة وتحديد نوعها، لأنّ لكلّ منهما تأثيره ودوره فى تنمية الإنسان، ولكنّهما مع ذلك ليسا العاملين الأكبرين.

مثال ذلك: إنّ شهر رمضان المبارك فرصة رائعة من حيث الزمان لكى يستفيد منها الإنسان لتسهيل المهمّة القاضية بتربية نفسه وتهذيبها، مع ملاحظة ما ورد فى الروايات المأثورة عن أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين والقائلة بأنّ الله عزّ وجلّ سيحبس الشياطين بالحديد عن أن توسوس لبنى آدم فى هذا الشهر الفضيل، ولكن هل تكفى فرصة شهر رمضان فى استغلال هذا الاستثناء الرائع لكى ينجز الإنسان مهمّته الكبرى، والتى من أجلها قد خُلق؟!

الشيطان فى شهر رمضان

بين أيدى المسلمين خطبة شريفة متواترة عن النبىّ المصطفى صلى الله عليه وآله، جاء فيها أنّ الله تعالى يحبس الشياطين فى شهر رمضان، ثمّ خاطب المسلمين قائلًا: «فاسألوا ربّكم أن لا يسلّطها عليكم».

وبناءً على إشارات وتعابير كثير من العلماء، فإنّ الشياطين بمثابة أشياء تتحرّك باتجاه الإنسان بواسطة جاذبيّتها الذاتيّة وجاذبيّة النفس الأمّارة بالسوء لها، إلا أنّ مانعاً كبيراً يصدر من قبل الله تعالى فى شهر رمضان المبارك يحول دون إتمام عمليّة التجاذب، ولهذا المانع قدرة أكبر من قوّة الجاذبة الشيطانيّة، ولكن تبقى جاذبة الشهوات والنفس الأمّارة بالسوء قادرة على الاقتراب من الشيطان فى شهر رمضان، ولولا وجود جاذبيّة الشهوات والنفس الأمّارة، لما كان هناك من يقترف ذنباً طيلة هذا الشهر.

ولنا أن نفهم من خلال روايات أخرى، حقيقة الوسائل والأسباب التى تحطّم أغلال الشياطين، التى هى مظهر من مظاهر العناية الإلهيّة.

روى عن أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال:

الفتن ثلاث: حبّ النساء، وهو سيف الشيطان. وشرب الخمر، وهو فخّ الشيطان. وحبّ الدينار والدرهم، وهو سهم الشيطان.

كما أنّ لبعض أصحاب المعصومين سلام الله عليهم تفاسير وتحاليل وآراء فى روايات المعصومين بصورة عامّة.

ومثال ذلک: أنّ على بن إبراهيم القمّى رضوان الله عليه وهو من أصحاب الإمام الرضا والجواد سلام الله عليهما، ولعلّ له صحبة للإمام الهادى سلام الله عليه، وكذلک يعتبر أستاذاً للعالم المحدّث الشيخ الكلينى، أورد أن من جملة الأسباب التى تفکّ القيود عن الشيطان وتمنحه القدرة على النفوذ مرّة أخرى. الرياء والعجب وعدم إخراج الخمس والزكاة، فما يستفاد من مجموع هذه الروايات أنّ شهر رمضان المبارک هو شهر خاصّ واستثنائيّ.

ولعل سائلًا يسأل قائلًا: اذا كان هذا فعل الشيطان، فلماذا أنظره الله تعالى وأطلقه ثم يحبسه فى شهر رمضان؟

وفى معرض الإجابة نقول: إن الله عزّ وجلّ قد أطلق الشيطان ليبتلى به الإنسان ويمتحنه، ولكن الإنسان قد عفى عن هذا الابتلاء والامتحان فى شهر رمضان المبارک خاصّة، فهو يتلقّى البركات بلا جهد بذله أو عمل قدّمه.

قصة حبال الشيطان

قيل إنّ شخصاً جاء إلى الشيخ الأنصارى وقال: لقد رأيت الشيطان فى عالم الرؤيا وكان معه مزيد من الحبال والسلاسل بأحجام مختلفة، فسألته عنها، فقال: إنّها وسائل عملى حيث أجذب الناس بها وأجرّهم إلىّ، فبعض منهم بالحبال أسحبهم، وآخرون بما دقّ منها، ومنهم بالسلاسل الغليظة، أىّ أنه يستخدم وسائله بما يناسب كل إنسان حسب مستوى إيمانه ومقاومته.

قال: ثم رأيت سلسلة محطّمة متناثرة قطعاً صغيرة، فسألته عنها؟ فقال: لقد ألقيت هذه السلسلة الكبيرة على عنق الشيخ الأنصارى لأقيّده بها، ولكنه قاوم حتى تحطّمت وتناثرت.

ثمّ إنّ هذا الرجل صاحب الرؤيا قال: فسألت الشيطان فى المنام نفسه عن أىّ الحبال قد خصصّها لجذبى نحوه، فأجابه الشيطان بأنّک لا تحتاج إلى واحد منها، لأنّک تستجيب لى بإشارة بسيطة منّى!!

أقول: إنّ أمام الإنسان فرصة مواجهة النفس الأمارة بالسوء والشيطان ما دام على قيد الحياة ليحفظ نفسه ويصونها دون الاضطرار إلى الانحراف، حيث لا يجد لنفسه فرصة الندم عند الموت، ولات حين مناص.

الهلع من الذنب

الهلع من الذنب

«يا أبا ذر، إنّ المؤمن ليرى ذنبه كأنّه تحت صخرة؛ يخاف أن تقع عليه، وإنّ الكافر ليرى ذنبه كأنّه ذباب مرّ على أنفه...»

يكمن الفرق بين المؤمن والكافر فى موقف كلّ منهما إزاء الذنب والخطيئة، فالكافر لا يولى أهميّة تذكر لذنوبه، ولا يتحسّس أو يخاف ممّا تقترفه يداه. ولكن المؤمن يتوجّس خيفة من ذنبه حتى وإن مرّ زمن على اقترافه إيّاه، فتراه يتوقّع عواقب ذنبه الظاهرية أو الباطنيّة، ويعيش اضطراباً وقلقاً نفسيّين لا يستبعد معهما تلقّى الإجابة والردّ التكوينى على الذنب مطلقاً.

ثمّ إنّ إيمان الفرد كلّما ارتقى مرتبة، تضاعف هلعه من الذنب مرتبة مثلها. فلو تصوّرنا شخصاً رأى نفسه فجأة فى وسط الصخور ويحتمل تساقط المزيد منها، تراه ولو كان الاحتمال ضعيفاً يعانى قلقاً يسلبه راحته وتركيزه.

فيا ترى لو وجد المرء نفسه فى هذه الحالة، فهل سيكون بمقدوره النوم؟ وهل سيلتذّ بطعام؟

فاحتمال سقوط الصخور وإن كان ضعيفاً إلا أنّه سيسلبه الراحة والاستقرار، ويضطرّه إلى معاودة النظر والالتفات، حذراً من تساقط مزيد من الصخور على رأسه، رغم علمه المسبق بأن إعادة النظر لا تأثير له فى تساقط الصخور أو عدمه، والنبىّ المصطفى صلّى الله عليه وآله قد ضرب مثلاً فى هذا المقطع من وصيّته الشريفة لأبى ذر الغفارى رضى الله عنه ليكون مقياساً يمتحِن به الإنسان مستوى قدرته على مدى اقترابه من جوهر الإيمان.

مجيء حرف (إنّ) فى مطلع عبارة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ثم استخدام (اللام) لفعل (يرى) يفيدان تأكيد المعنى، رغم أنّ الجملة توصل معناها دون الحاجة ل (إن واللام)، ولكن النبى الأعظم ونظراً للأهميّة التى رآها لهذا المفهوم، فقد استفاد من أداة التأكيد مرّتين، ليُعلم الشبه الكبير بين المثال الذى تمّ طرحه وبين مفهوم هذا المقطع من الوصيّة.

وعليه؛ فإنّ الفرد المذنب لا ـ يستطيع إيجاد تغيير ما فى ذنبه الذى ارتكبه عن طريق الاضطراب. إلا أنّ هلع المؤمن أقرب إلى التوبة والصلاح من عدم مبالاة الكافر تجاه ذنبه. فكلّ فرد مدعوٌّ إلى الرجوع لنفسه ليرى هل خلّف ارتكاب الخطيئة فى وجوده هلعاً واضطراباً؟ وهل هو نادم عمّا اقترفت يداه؟

الكافر والذنب

القسم الثانى من العبارة خاصّ بالحديث عن الكافر وموقفه من الخطيئة والذنب. وهنا ينبغى الالتفات إلى حقيقة أنّ الكافر بدوره يرتكب الذنب، ذلك لأنّ الكافر الواقعى يستقبح بعض الممارسات ولكنّه يرتكبها رغم أنّه يعتبرها خطيئة. ثمّ إنّ للكفر مراتبه كما للإيمان مراتبه، لاسيّما أنّ كثيراً من المسلمين وفى حالات معيّنة يُعَدُّون بناءً على بعض الآيات والروايات الأخلاقيّة كافرين، من حيث التكليف فى دائرة الإسلام. بعبارة أخرى: لا يلزم أن نتصوّر الكافر شخصاً مشركاً منكراً لأصل الوحدانية، أو ملحداً منكراً لوجود الله تعالى. فالبارئ سبحانه وتعالى وصف فى القرآن المجيد من يتجاهل فريضة الحجّ كافراً، وقال:

ولله على الناس حِجُّ البيتِ مَنِ استطاع إليه سبيلًا ومَنْ كفَر فإنّ اللهَ غنيٌّ عن العالمين.

مع أنّه قد يكون متشهّداً الشهادتين ومقيماً للصلاة ومؤدّياً للخمس والزكاة، وجمع فى نفسه بقيّة شرائط الإسلام.

وإذا أمعنّا النظر فى النصّ النبوىّ موضوع البحث، وجدنا أنّ عدم انتشار الخوف والاضطراب فى ذات المرتكب للذنب يوجب إطلاق وصف الكافر عليه، لأنّ من توصّل إلى معرفة الله الواحد الأحد الفرد الصمد بشكل صحيح، واعتقد ذلك فى عقله وقلبه، استطاع أن يغيّر موقفه من الذنب، كما أمكنه أن يستدعى به استيلاء الهلع على نفسه، وإن لم يحدث ذلك لشخص ما حين اقترافه للذنب، فعليه التأكد بأنّه لم يعرف الله بعد، وبالتالى فهو فى حقيقة أمره مصداق للكافر.

إنّ بمستطاع الإنسان المؤمن أن يربّى نفسه بشكل لا يبقى فيه على الخوف من الخطيئة أو الهلع أو أىّ شىء من نتائجها فى داخله حيّاً دائماً، كما له القدرة على أن يعيش أيّامه مجرّداً عن تحمّل مسؤولية ذنوبه، بعيداً عن أىّ تفكير وهلع فى نتائج ما اقترفت يداه.

وهذه الحقيقة تشير بوضوح إلى أنّ للنفس البشرية خلافاً للبدن قابليات متضادّة ومتفاوتة، فهى ليست محدودة كقابليات الجسد، إذ مهما تكن عين الإنسان قويّة، تعجز عن قراءة سطر من الكتابة وضع على مبعدة منها حسب المتعارف كذلك فإنّ أقوى العيون لا يمكنها قراءة سطر واحد إذا وضع على مسافة سنتمتر واحد، وهذه المحدوديات وأمثالها توضّح طبيعة التفاوت الكبير بين جسم الإنسان وروحه، إذ لا محدودية لهذه الأخيرة كمحدودية الجسد؛ فهى غير مقيّدة بما يحيط بها بشكل كبير أو دائم.

إنّ قابليات الإنسان فى القضايا النفسيّة والروحيّة، سواء على المستوى الإيجابى أو السلبى غير محدودة فى بعض الأحيان، وسواء فى أطر السعادة أو أطر الشقاء، فهى تمتاز بحريّة حركة أكبر ومساحة أوسع، للانطلاق نحو الرشد والتكامل أو السقوط والانحطاط.

فجميع الناس قادرون على تحطيم قيود الكفر، والابتعاد عن الجهل، والوصول إلى معرفة الله بالصورة الممكنة، كما أراد الله تعالى، وهذه القدرة على الانطلاق نحو الخير هى التى تبعث فى وجودهم الهلع والاضطراب من ذنوبهم التى يقترفونها، وكذلك هم قادرون بما لنفوسهم من حريّة حركة على أن يبتعدوا عن الله ربّهم ويختطّوا لأنفسهم مسيرة الإجرام وإراقة الدماء وقتل أولياء الله تعالى، دون أن تهتزّ لذلك ضمائرهم وترتجف له قلوبهم.

وقد ورد فى بعض الروايات أن تحسّس الإنسان المؤمن تجاه الذنب قد يبلغ حدّاً فى بعض الأحيان بحيث يشعر بوخز الضمير وتفاقم الألم والندم، وإن مرّ عليه عشرون عاماً، فتراه يختار التوبة إلى الله تعالى، وآنذاك يتفضّل عليه ربّه بالمغفرة والعفو، بل لعلّه يبدّل

سیّئاته حسنات ویکتب له رضواناً وجنّة أبدیّین.

قصة المرأة العفیفة والشاب الفاسق

روی عن الإمام السجاد سلام الله علیه حکایة جدیرة بالتأمّل نلخّصها علی النحو التالی:

سافر عدّة من الناس علی متن سفینة، وفجأة هبّت علیهم عاصفة أغرقت سفینتهم وجمیع من کان علیها، إلا امرأة شابة استطاعت النجاة علی جذع کان طافیاً، فالتجأت إلی جزیرة کبیرة مکتظّة بالسکان.

وکان فی هذه الجزیرة شاب ماجن، التقته المرأة الشابة علی نحو الصدفة، وما إن رآها حتی تحرکت شهوته تجاهها إذ کانت جمیلة جداً فسألها عمّا إذا کانت من الإنس أو الجن!

فأجابته وهی تعانی الإرهاق الشدید لما تعرّضت له ولما رأت من غرق الذین کانوا معها فی السفینة، بأنّها من الإنس.

فاقترب منها الشاب بقصد الخطیئة، فتفاجأ برؤیة المرأة ترتجف بشدة ویهتزّ بدنها، فسألها عن سبب ذلک، فقالت له بأنّها خائفة، فقال لها: وممن تخافین ولیس من أحدٍ معنا؟!

فأشارت بیدها إلی السماء وقالت: أخاف الله تعالی...

وهنا أحسّ الشاب بانقلاب فی نفسه حیث ترک جواب المرأة أثراً بالغاً فیه، ولم یشعر إلا وهو یهمّ بترک هذه المرأة العجیبة، ولکنّه التفت نحوها قائلاً: إنّک تشعرین بکل هذا الخوف ولم ترتکبی ذنباً، فالویل لی أنا المذنب وقد أردت حملک علی ارتکاب الخطیئة!

لقد انقدحت فی نفس هذا الشاب شرارة المعرفة، وهو الذی کان حتی الأمس رجلاً فاسقاً لا مبالیاً، فقرّر التوبة الی الله تعالی...

وفی طریق عودته التقی راهباً من الرهبان، فاتفق لهما أن سارا معاً، وحیث کان الراهب منزعجاً من شدّة الحرّ، فقد قال للشاب: تعالَ لندعوا الله تعالی لیرسل الله لنا غمامة نستظل بفیئها ونواصل مسیرنا.

ولکنّ الشاب الذی کان یشعر بشدید الخجل من سلوکه مع تلک المرأة، أجاب الراهب قائلاً: لا أشعر بالطهارة فی نفسی کی یکون دعائی ذا فائدة، وإنّنی لأخجل من سیرتی السابقة حتی أقف بین یدی الله.

فقال له الراهب: إذن سأدعو أنا، وما علیک إلا أن تؤمّن علی دعائی.

وفعلاً؛ توجّه الراهب بالدعاء طالباً من الله تعالی أن یرسل علیهما غیمة تظلهما لیتخلّصها بها من أشعة الشمس الحارقة. فأمّن الشاب علی دعائه. ولم یمضِ علیهما کثیر وقت حتی رأیا غیمة تسیر فوق رأسهما وتظللهما إلی أن بلغا مفترقاً للطرق، فانفصلا عن بعضهما، کلّاً باتجاه مقصده، ولکن المفاجئ فی الأمر أنّ الغیمة تبعت الشاب بینما بقی الراهب بلا ظلال!!

فأدرک الراهب أنّ الله تعالی قد استجاب لتأمین الشاب فحسب، دون دعائه، فاقترب منه وسأله عمّن یکون لینعم علیه الله بهذه المنزلة السامیة، فقصّ علیه الشاب حکایته، فقال له الراهب: إنّ الله أنعم علیک بهذه المرتبة الرفیعة لما قدّمت بین یدیه توبتک وأظهرت خوفک من المعصیة.

بلی! إنّ الله تبارک وتعالی یمنّ علی عباده ویرحمهم حیث یهدمون وراءهم جسور المعصیة ویتوجّهون إلیه بقلوب خاشعة، ونفوس هاربة إلیه ممّا یسخطه، فیتوب علیهم إذ یقرّرون فی ثوانٍ معدودة التوبة عن سنین الخطایا والموبقات، وإذ ذاک یفتح لهم رحاب الرحمة وآفاق المعرفة والتکامل.

قصة أخری

قیل: إنّ شخصین ذهبا إلی مجلس مّا، وما إن استقرّ بهما المقام حتی قام أحدهما وغادر المکان، فظنّ صاحبه أن أمراً ما قد ألمّ به أو عارضاً قد أصابه. وبعد ما رآه مرّة أخری سأله عن سبب ترکه للمجلس، فأجابه قائلاً: لقد کان لی مع أحد الذین کانوا حاضرین فی

المجلس مشكلة، فظننت أنّ حضورى فى المجلس سيسبّب إحراجاً لى، فرجّحت مغادرة المكان.
يتّضح من ذلك أنّ احتمال ذهاب ماء وجهه دعاه إلى مغادرة المجلس، ولعلّ ذلك لا يحدث أبداً، بل ولعلّ ذلك الشخص الآخر قد نسـى أو غفل عن أصل المشـكلة، ولكن هـذا الاحتمال على ضـعفه دفعه إلى المغادرة، والآن لننظر إلى أىّ مـدى تحظى الرغبة بحفظ ماء الوجه لدى الوقوف أمام الله تعالى بالأهمية عندنا.

كنوز ثمينة

تعتبر الآيات القرآنية والنصوص الدينيّة، بما فيها الأحاديث النبويّة وسائر روايات المعصومين صـلوات الله عليهم كنوزاً ثمينة ورأسـمالاً لا يضاهى لحياة الإنسان فى الدنيا والآخرة، حيث يمكن لابن آدم استثمارها فى تعبيد طريقه نحو النجاح والفلاح فى كلا الدارين، ولو أعاد النظر بالموقف من هـذه الكنوز وعادلها بمال الـدنيا من ذهب وفضّ ة لتبيّنت حقيقة تفاهة هذا المتاع القليل إزاء كلمات الله تعالى وكلمات المعصومين سلام الله عليهم، تلك الكنوز المفعمة بالحكمة والنور والفوز العظيم.
إنّ هـذه الكلمات تناسب وتأخـذ بيـد الإنسان نحو الصـلاح والفلاح دائماً وأبـداً، فهل يمكن قياسـها مع أموال الدنيا الماديّة والظاهريّة على ما هى من متاع قليل؟
إنّ للإنسـان بعـدين وجوديين، روحـانىّ وجسـمانىّ، ولكـلّ واحـد من هـذين البعـدين آفـاته وأمراضه، وهى قابلـة للعلاج إذا ما تمّت الاسـتفادة مـن تلكـم الكنـوز، فـإذا مـا تـمّ الالتفـات بدقّـة إلى تلكـم الكلمـات النورانيـة الحكيمـة، أمكن استيحـاء واسـتلهام النصـائح والإرشـادات والتعاليم الفـذّة والـدروس القيّمـة التى يسـتطيع ابن آدم من خلالها إعمار دنياه وآخرته. إنّ القرآن وأحاديث أهل البيت سلام الله عليهم: هما الطبيب البارع والعلاج الناجع لأمراض وآفات الإنسان جميعها.

ابن أبى الحديد ونهج البلاغة

لأمير المؤمنين سـلام الله عليه خطبة مهمّة وكلّ خطبه وكلماته سـلام الله عليه كذلك جديرة بالمطالعة والتدبّر، باعتبار احتسابها أفضـل عبرة للناس. وقد أورد الشريف الرضى هذه الخطبة العظيمة فى (نهج البلاغة) فيما أولاها ابن أبى الحديد مزيداً من الاهتمام فى (شرح نهـج البلاغـة) خاصّـة، وقـد قال فى معرض تبيينه لشـىءٍ من عظمة هذه الخطبة: وأقسم بمن تُقسم الأمم كلّها به لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرّة ما قرأتها قط إلاّ وأحدثت عندى روعة وخوفاً وعظة وأثّرت فى قلبى وجيباً وفى أعضائى رعدة.
وقبل التمعّن فى كلام ابن أبى الحديد، لابدّ من إلقاء نظرة على شخصيّته العلمية ليتمّ إدراك أهميّة كلامه فى هذا الباب.
يعتبر ابن أبى الحديد من شيوخ وأساتذة والد العلامة الحلّى رضوان الله تعالى عليهما. وقد قام بشرح (نهج البلاغة)، ومن ناحية أخرى؛ فإنّه فضـلًا عن شـرحه، فقد أتى على ذكر الكثير من أقوال أمير المؤمنين سـلام الله عليه التى لم يدوّنها الشـريف الرضـى رحمه الله فى (نهـج البلاغة) ذلك لأنّ ما جاء فى هذا الكتاب الشـريف لا يحوى جميع كلام الإمام على سـلام الله عليه، وإنّما تضـمن مختارات من خطبه وكلماته.
والآن نجـد هذا المحقّق المفكّر الذى قضـى عمره فى تحصـيل العلم، وسـمع الكثير الكثير من الأحاديث والروايات، وبلغ منزلة مرموقة فى فهم واستيعـاب كلمات وأقوال أمير المؤمنين سـلام الله عليه، نجـده يؤكّـد بأنّه يواجه نصّاً جديـداً رغم قراءته لنصّ الخطبـة العلويّة المـذكورة لأكثر من ألف مرّة، وهى الخطبـة الخاصّـة بقضايا الآخرة والموت، كما نراه يؤكّد بأنّه كلّما قرأها، رآها تترك فيه من الأثر مالم تتركه عليه المرّة السابقة لها، مع أنه قد طالع الأشعار والنصوص الأدبيّة الكثيرة الخاصّة بشأن الموت والآخرة.
ثمّ يعود ابن أبى الحديد ليسأل نفسه عن السبب الحقيقى لهذا التأثير العجيب.

ويجيب هو قبل غيره على هذا السؤال قائلًا: وكم وقفت على ما قالوه، وتكرر وقوفى عليه، فلم أجد لشىءٍ منه مثل تأثير هذا الكلام فى نفسى، فأمّا إن يكون ذلك لعقيدتى فى قائله أو كانت نيّهٔ القائل صالحهٔ، ويقينه كان ثابتاً، وإخلاصه كان محضاً خالصاً، فكان تأثير قوله فى النفوس أعظم، وسريان موعظته فى القلوب أبلغ.

فى بدايهٔ الخطبهٔ، تلا مولانا أمير المؤمنين سلام الله عليه آيات من سورهٔ التكاثر المباركهٔ، فقرأ:

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ.

ثمّ قال سلام الله عليه:

«يا له مراماً ما أبعده! وزوراً ما أغفله! وخطراً ما أفظعه! لقد استخلوا منهم أى مُدّكر، وتناوشوهم من مكان بعيد، أفبمصارع آبائهم يفخرون ؟ ... أم بعديد الهلكى يتكاثرون ؟ ... ولأن يكونوا عبراً أحقّ من أن يكونوا مفتخراً».

وقال سلام الله عليه فى فصل آخر من هذه الخطبهٔ:

«الذين كانت لهم مقاوم العزّ، وحَلَباتُ الفخرِ، ملوكاً وسُوقاً، سلكوا فى بطون البرزخ سبيلًا»...

الاعتبار بالمقابر

حقاً إنّ بمستطاع الإنسان أن يستلهم العبر الكثيرة من رؤيهٔ المقابر، وحيث يطّلع مع ذلك على معارف كالمعارف التى تضمنتها خطبهٔ مولى المتّقين وسيّد الزاهدين سلام الله عليه المشار إليها، فإنّه سيقضى على غروره وتكبّره إلى حدّ كبير، وسيصبّ عظيم اهتمامه على أمر الآخرهٔ.

ومن ناحيهٔ أخرى؛ يؤكّد الإمام على سلام الله عليه أنّه على افتراض كون التفاخر بالأموات أمراً حسناً، فإنّ استلهام العبرهٔ من مصائرهم أمر أحسن وأشدّ إلحاحاً. فبدلاً من الاغترار بماضى الآباء والأجداد تفاخراً يراد منه التكبر، علينا أن نأخذ من واقعهم الذى هم عليه الآن الدرس والعبرهٔ.

وبهذه العبرهٔ والاعتبار سيكون من الصعب على الإنسان أن يغضّ النظر عمّا قد يرتكبه من الذنوب، وما قد يترتّب عليه من النتائج، لأنّه ستعتوره حالهٔ من الهلع والاضطراب، وسيخاف أبداً من أن لا يغفر الله له، بل سيكون الذنب بمثابهٔ حجر كبير يجثم على صدره، فينتهى به إلى الاختناق فالهلاك!!

دعاء الشيخ عباس التربتى

كان المرحوم الشيخ عباس القمّى والمرحوم الشيخ عباس التربتى والد المرحوم الراشد الواعظ إنسانين عظيمين ونادرين، كما كانا من عظماء خطباء المنبر والموعظهٔ، وكانا يتركان الأثر الطيّب فى من يستمع إلى خطبهما.

ذات يوم ارتقى المرحوم الشيخ عباس القمى منبر مسجد گوهر شاد، وكان الناس يصغون إليه، فإذا بالشيخ عباس التربتى يدخل المسجد، فقطع الشيخ القمّى خطابه؛ إكراماً وإجلالاً للشيخ التربتى، قائلًا: لقد حضر الفيض، وها أنا ذا أنزل من المنبر لكى نستفيد جميعاً من الشيخ التربتى.

فأجابه الشيخ التربتى قائلًا: ولكنّنى جئت لمجلسك لأستفيد منك. ولكن إصرار القمّى حمل الشيخ التربتى على ارتقاء المنبر. فجلس على مرقاته الأولى واستقبل الناس الجالسين قائلًا: لقد استمعتم الى مواعظ الشيخ القمّى، ولست على استعداد لأضيّع أوقاتكم، ثمّ نظر إلى الحاضرين وقال:

أيّها الشيوخ والكبار، يا من هم بعمرى، لعلّكم على علم بكثير من القضايا، وأنا لا أدرى ما أقول، ثم استدعى الأطفال والصبيهٔ لكى يتقدّموا قرب المنبر.

وحينما اجتمعوا إليه وجلسوا عند المنبر قال: لا شأن لى مع كبار السن، وحديثى منصبّ معكم أيّها الصغار الأبرياء، لقد قدمت إلى مدينة مشهد المقدّسة لأستفيد فيها، ولكن لم أصب فائدة بنزول الشيخ عباس القمّى، ولعلّنى أستفيد منكم أيّها الصغار لأنّ لكم صحائف بيضاء لم يكتب فيها ذنب وخطيئة، ذلك لأنّ: «القلم رفع عن ثلاث: عن الصبىّ حتى يحتلم» ...، ولذلك فإنّنى سأرفع يدى بالدعاء وعليكم أن تؤمّنوا على دعائى واطلبوا من الله تعالى أن يستجيب لنا ويقبل دعاءنا.

فرفع الشيخ التربتى يديه داعياً: إلهى، لسنا معصومين، ولكنّنا لا نرغب فى ارتكاب ذنب، وليس فى نيّتنا مخالفتك، غير أنّنا سقطنا فى الذنوب، ولا نعلم أيّها سيكون محطّ غضبك، وأيّها ستَغفر وتَمحو ... إلهى! إنّ هؤلاء الصبية لم يرتكبوا ذنوباً بعد، فاقبل دعاءهم وارحمنا.

فنادى الصبية جميعاً: إلهى آمين. حتى تغيّر جوّ المجلس واصطبغ بصبغة أخرى، وعمّت الجميع الفائدة.

حقاً إنّ خطاب هؤلاء العظماء يصدر عن قلوبهم، ولذلك كان تأثيرهم فى القلوب مباشراً أيضاً.

كيف ينبغى أن يكون المؤمن؟

كيف ينبغى أن يكون المؤمن؟

«يا أبا ذر، إنّ نفسَ المؤمنِ أشدُ ارتكاضاً من الخطيئة من العصفور حين يُقذف به فى شركه».

فى هذا القسم من الوصيّة الشريفة، يشير النبى صلى الله عليه وآله استمراراً للحديث السالف عن الهلع من الذنب، واستفادة من مثالٍ جميل إلى حالة المؤمن أثناء ارتكاب الذنب، حيث يؤكّد عليه وآله الصلاة والسلام أنّ قلب المؤمن حين اقتراف الخطيئة يرتجف أكثر من ارتجاف قلب العصفور الرقيق حين وقوعه فى فخّ الصياد.

إنّ كلمة (ارتكاض) تعتبر كلمة غريبة ونادرة الاستعمال بين الكلمات الأخرى. فهذه الكلمة لا وجود لها فى نصوص الروايات إلا ما ندر.

والارتكاض: يعنى الاضطراب. ولكن للاضطراب مراتب ودرجات.

وحيث إنّ الارتكاض يقف على قمّة مراتب الاضطراب، فإنّه لا يستعمل فى أىّ نوع من الاضطراب كان.

ومثال ذلك: إذا ألقيت على رجل من الأعيان تهمة السباب والفحش فى القول، فإنّه سينزعج لذلك ويضطرب. وفى هذه الحالة لا يعبّر عن انزعاجه واضطرابه بالارتكاض. ولكن هذا الشخص نفسه إن اتّهم بتهمة الفسق والفجور، فإنّ الارتكاض فى هذه الحالة سيصدق تماماً على انزعاجه واضطرابه؛ لأنّ اضطرابه سيكون فى أعلى درجاته، وقد يضطرّ إلى الهجرة عن محلّ سكناه؛ ومن ثم فإنّ الاضطراب حسب أقوال علماء اللغة والبلاغة ذو معنى مشكّك، وله درجاته الخاصّة به.

العلاقة بين الارتكاض والارتكاب

ثمّة قضيّة لطيفة فى هذا الحديث الشريف، وهى أنّ النبى المصطفى صلى الله عليه وآله اعتبر حصول الارتكاض فى قلب المؤمن من مجرّد ارتكابه الخطأ كافياً، أىّ إنّ المؤمن الحقيقى وفق المنظار النبوىّ هو من يهتزّ وجوده لارتكابه الخطأ، وليس بالضرورة أن يكون خطؤه ذنباً أو معصية، ويتّبع ذلك الاضطراب بأشدّ صورة.

نعم؛ إنّ النصّ النبوىّ الشريف لم يستخدم كلمة (ذنب أومعصية)، وإنّما استفاد من كلمة (خطيئة) وهى تعنى فى بعض الأحيان الاضطرار إلى المعصية، أو ترك الأولى، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ وراء انتخاب المعصومين سلام الله عليهم لهذه الكلمة دون غيرها حكمة بالغة وبلاغة فائقة، وهم سلام الله عليهم لا يستعملون الكلمات المترادفة أو القريبة من بعضها فى المعنى إلا ضمن

انتخاب دقیق وعنایة خاصّة. وهکذا فإنّ النبی صلی الله علیه وآله حینما لم یستعمل کلمة (معصیة) ولجأ إلی استخدام کلمة (خطیئة) یعنی بأنّه کان بصدد تبیین وتأکید مراتب خاصّة فی هذه المعانی المتقاربة.

إذن فاستفادته صلی الله علیه وآله من کلمة (ارتکاض) فی هذه الجملة کان هادفاً، وهذه البلاغة النبویّة الحکیمة إنّما کانت من أجل توضیح أهمیّة الموضوع ودرجته، ولذلک أدرج صلوات الله وسلامه علیه فی حدیثه کلمة نادرة الاستخدام، وإلا کان بمستطاعه أن یأتی مثلًا بعبارة (أشد اضطراباً) لانسیاقها فی نفس المعنی.

والقضیة اللطیفة الأخری فی هذا الحدیث اختیاره صلّی الله علیه وآله للعصفور فی وصف درجة الاضطراب، ولاشک أنّ الطیر بل الحیوانات جمیعاً بما فیها الإنسان أیضاً، یصابون بالاضطراب جمیعاً حینما یسقطون فی فخّ من الأفخاخ، ولکن یبدو أنّ شدّة اضطراب العصفور آنذاک أکثر وضوحاً، لاسیّما أنه فی تلک الحالة المزریة سیمتنع عن شرب الماء والتقاط الحبّ، بل عن کامل حریّته، فتراه یرتطم ببدنه بهذا الجانب وذاک لعلّه یتخلّص من فخّه أو شراکه.

لا تستصغرن ذنبک

یتفاوت الناس فی طبیعة اضطرابهم للذنوب، کما یتفاوتون فیما بینهم بکثیر من الأمور.

فتارة یقال لأحدهم: لماذا أذنبت؟ فیجیب بأنّه لا یرتکب کبائر الذنوب وإنّما یکتفی بصغائرها مشیراً إلی أمله لأن یحاسبه الله علیها فقط!!

وهذا النوع من التفکیر فی المحاسبة المأمولة فی استصغار الذنوب قد عبّرت عنها الروایات الکریمة بأنّها ذنوب لا تُغفر، لأنّ الاستصغار بحدّ ذاته یعدّ من کبائر الذنوب؛ قال الإمام الصادق سلام الله علیه:

«اتقوا المحقّرات من الذنوب، فإنّها لا تُغفر».

أی مع استصغارها والتهاون فی الموقف منها.

الاضطراب لدی ارتکاب الذنب، من الإیمان

وفقاً لما تقدّم؛ إنّ الاضطراب لدی ارتکاب المعصیة یعدّ الشرط الأوّل لوجود الإیمان فی قلب الإنسان. أما من یقضی کلّ نهاره فی ارتکاب الذنوب والمعاصی دون أن ترتجف له شعرة ثم ینام هادئ البال، فهو لاشکّ خارج عن دائرة الإیمان. بینما لو سمع هذا الشخص نفسه بأنّ من المقرّر اعتقاله أو اعتقال أحد أقاربه، فهل تراه ینام لیلته مطمئنّ البال؟ أم هل سیکون لنومه معنی؟ ولذلک فإنّ نومه الهنیء بعد ارتکابه للذنب یعنی أنّه محروم من معرفة عظمة الله تعالی وخارج عن دائرة الإیمان.

إنّ علی الإنسان أن یحیی فی نفسه حالة الاضطراب حین ارتکابه الذنب، کما علیه أن یبذل قصاری جهده لیصل إلی درجة من الإیمان عبر التمرین والممارسة.

نعم، هکذا کان العظماء الصالحون الذین إنّما وصلوا إلی ما وصلوا إلیه من الإیمان بوسیلة المراقبة التدریجیّة للنفس.

إنّ قلب المؤمن یشبه إلی حدّ کبیر جداً وعاء الماء الذی یصلح بعد حدوث شرخ أو کسر فیه، فهو فی ظاهره سالم من العیوب، وقد یحافظ علی جمیع قطرات الماء المسکوب فیه من الانسیاب، ولکنّه فی الوقت ذاته لا یبقی وعاءً سالماً.

إنّ أثر ذلک الشرخ فی الوعاء یشابه اللوعة والألم للذین یحرقان قلب المؤمن جرّاء ارتکاب الخطیئة. لهذا فإنّ الإیمان لن یترک للمؤمن الحقیقی شعوراً مریحاً حین ارتکاب الذنب، بل إنّه سیستعذب الخیر والصلاح ویکره الخطیئة کرهاً حقیقیّاً.

إنّ علی الإنسان أن یعی الحکمة الأساسیّة من وجوده فی الحیاة الدنیا، ثمّ یتصرّف وفق ما یملیه علیه وعیه لفلسفة خلقته، کما علیه أن یعرف بأنّه سیغادر الدنیا لا محالة ذات یوم، وسیدخل عالماً ملؤه الهیبة وحاکمیّة العدل.

فكلّ عام ینقضی، یغادر معه عدّة من الأشخاص الذین كانوا بین ظهرانینا، ونتحسّس نحن من جانبنا الفراغ الذی خلّفوه برحیلهم، وهذا كلّه لا یعدو أن یكون رسالة مباشرة لنا نحن الأحیاء، ودلیلاً علی اقتراب یوم الهیبة والعدل.

وجمیع الرسائل والإشارات والمواعظ الأخلاقیّة أمور منبّهة، ولكن المرجع فی جمیع ذلك هو مراقبة النفس ومحاسبتها المستمرّة، لئلا تنفلت من عقالها، ثمّ لا یستطیع صاحبها كبح جماحها أبداً.

لیلة القدر

طبقاً لإحدی الروایات الشریفة؛ فإنّ لیلة التاسع عشر من شهر رمضان تعتبر (لیلة التقدیر) واللیلة العشرین(لیلة القضاء) أما لیلة الثالث والعشرین فهی (لیلة الإبرام)، وهی كلّها لیالی القدر، ولكن مع تساویهن فی هذا المجال إلا أنّ لكلّ واحدة منهنّ خصوصیّاتها التی تمیّزها عن غیرها.

وحسب الروایات الكریمة بهذا الشأن؛ سمّیت اللیلة التاسعة عشرة ب (لیلة التقدیر) أیّ أنّها اللیلة التی تحدّد فیها حدود حیاة الإنسان من حیث الكمیّة، فتعرف فیها هیكلیّة حیاته من ناحیة السعادة والشقاء، والراحة والألم، والطاعة والمعصیة، والغنی والفقر، والصحّة والمرض.

وحینما تنقضی هذه اللیلة بطلوع الفجر تُعیّن هیكلیة حیاة الإنسان وتعلم، وبكلمة: یجری التقدیر فیها.

وكذلك یعلم فی لیلة التقدیر هذه تقدیر ابن آدم من حیث الأعمال التی سینجزها، أو المراتب والدرجات التی سیرتقیها. أی أنّه سیعلم من هذه اللیلة من هو: «أشد ارتكاضاً من الخطیئة».

وبعد مرحلة (التقدیر) تحلّ لیلة الحادی والعشرین من شهر رمضان المبارك، والتی فیها یثبت لابن آدم ما علم وحتم وقُدّر فی اللیلة التاسعة عشرة. أی أنّ التقدیر لمّا عُلم، حلّت مرحلة تفعیل هذا التقدیر. تماماً كما یطالع القاضی ملفّ موضوع الدعوی ثمّ یرجع الحق إلی أحد الطرفین فی الدعوی، إلاّ أنّه یوكل إصدار الحكم النهائی إلی وقت آخر، فإذا ما سئل القاضی عن مضمون الحكم الذی لم یصدر بعد، فإنّه قد ینبئ به، ولكن صدور الحكم بشكل قاطع قد أرجئ إلی حین آخر.

أما اللیلة الثالثة والعشرون؛ فتسمی لیلة (الإبرام) والإبرام لغةً یعنی شدّ خیوط الحبل بعد أن كانت منفصلة ومنفكّة، وهنا یعنی تأكید الحكم الحتمی الذی كان قد صدر من قبل، فالتقدیر والتثبیت یكون الحكم فیهما غیر قابل للنقض فی هذه اللیلة، رغم إبرام الأحكام الصادرة فی هذه المرحلة الحتمیّة یمكن أن تبدل وتغیّر بواسطة الإرادة الإلهیّة المطلقة، وذلك طبقاً لمضمون هذه الروایة الشریفة.

بعبارة أخری: إنّ الإبرام والحتم وتحدید البركات والفیوضات هو من جانبنا نحن البشر، ولیس من جانب الرب الخالق القادر والمتفضّل فی واقع الأمر.

ولعلّ شهر رمضان المبارك ولیالی القدر الشریفة وأوقات أخری ممیّزة قد اختصّت لتحقیق هذا الأمر تلزم الفرد المؤمن باستثمارها، باعتبارها فرصاً ذهبیّة.

وإنّنا نلاحظ من جانب ثانٍ أنّ الأئمة المعصومین سلام الله علیهم كانوا حریصین أشدّ الحرص علی توضیح هذه الحقائق الرائعة للناس، ولیست الروایات الشریفة والأدعیة المباركة المخصّصة لهذه المناسبة أو تلك إلا وسائل وآلیات كسبٍ واجتذاب للمسلمین كی یدركوا شرف تلكم المناسبات والاستفادة من فضائلها لتحقیق ما یتسنی لهم من الرقیّ والتقدّم فی طبیعة النظرة إلی الاستغفار والتوبة، وصقل الشخصیة الإیمانیّة باتجاه الحذر من الذنوب والخطایا.

نعم؛ إنّ الوقت المحدّد ومعرفة المناسبة الخاصّة لنهل الفیوضات الربانیّة المباركة قضیة مهمّة للغایة ومثمرة فی الحین ذاته. ورغم أنّ الله المتعال فی شهر رمضان المبارك هو نفسه الرب الوهاب فی فترة ما بعد هذا الشهر الفضیل وما قبله، ولكن لموسم الصوم خصوصیة ومیزة غیر موجودة فی غیره من المواسم والمناسبات، مثله فی ذلك مثل الموسم الزراعی حیث تنشر البذور فی الارض، ولو

أنّك نثرت أضعافاً مضاعفة من البذور فى غير الموسم الخاصّ، ما أينع زرع ولا اشرأبّت نبتة.
وقد نسبت فى هذا المعنى أبيات شعرية لطيفة المعنى للإمام أمير المؤمنين على سلام الله عليه، حيث جاء فيها:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً

ندمتَ على التفريط فى زمن البذر

وما إن ليوم البعث زاد سوى التقى

تزودته حتى القيامة والحشر

أقول: قد يتّفق أن يفتقر المرء إلى أرض زراعيّة، أو يكون عاجزاً عن امتلاك وسائل الزراعة، فتراه لاينـدم على شىءٍ لأنّه يفتقر إلى أصل القضيّة، وهو القدرة على أن يكون مزارعاً، ولكن النادم الأكبر هو من تتوافر لديه جميع الإمكانات، كالأرض والبذر والماء، غير أنّه لا يحرّك ساكناً ويترك الأرض يباباً، وهو الذى يوصف بأنّه مصاب بداء التفريط المروّع.

وبما أنّ الناس لا يشبه بعضهم بعضاً، كذلك فإنّ مسؤولياتهم متفاوتة فى الدنيا، وليس موقف الأب والأخ والابن على حدّ سواء فى يوم القيامة، إذ كلٌّ له شأن يغنيه، وكلٌّ له موقفه وموقعه الخاصّ به، ولعلّ العامل الأساسى فى هذا التفاوت هو حجم الاستفادة التى اقتنصها من إمكاناته فى دار الدنيا، وكذلك طبيعة أعماله التى قام بها أو لم يقم بها...

فإنّ مفهوم جملة (مثقال ذرة) كفيل بأن يؤثّر كلّ التأثير فى تحديد المصير، ولهذا أصبحت لحظة تدبّر وتعمّق وتفكّر واحدة قادرة على السموّ بالإنسان إلى منزلة وصفها النبى المصطفى صلى الله عليه وآله بقوله: «انصرف الرجل وهو فقيه»....

إذاً؛ فهناك مقاطع زمنية ذات تأثير كبير ومباشر فى تحديد ورسم مصير الإنسان، ومن أبرز مصاديق هذه المقاطع ليلة القدر التى بمقدور مختلف الناس أن يستثمروها حسب مستوياتهم، وما يهمّ فى شأن هذه الليلة المباركة أن يعرف المحيى لها واجبه الذى عليه أن يؤدّيه فيها، وماذا عليه أن يحقّق فى نفسه من الشروط والمؤهلات.

تزكية النفس واجب عينى

إنّ أوّل شرط لسلوك هذا السبيل هو تزكية النفس، وهى الواجب الوحيد الذى يعتبر واجباً عينياً بما للكلمة من معنى، أى أنّه لا يقبل الاستنابة والبدل، حيث لا يتصوّر إلا صدوره من الإنسان نفسه، فهو واجب شخصىّ فردى مطلق. فلا يستطيع شخص آخر النيابة به عن الآخرين، ولا يستطيع صاحبه استبداله بغيره من الواجبات والفرائض.

لذلك أصبح هذا الأمر واجباً مباشراً، بأن يضع المرء قدمه على طريق إحراز التنفّر عن المعاصى، وهذا التنفّر هو المرحلة الأولى من مراحل تزكية النفس، حيث يرتفع بها ابن آدم درجات ودرجات نحو السمو والرقى ليصل بقلبه إلى قلب ذلك العصفور، بل أشدّ منه ارتكاضاً من الذنوب.

بلى؛ إنّ الهلع من الذنب أحد العوامل التى تقصّر الطريق على ابن آدم، فتأخذ بيده من حضيض المأساة والتخلّف إلى أوج الإدراك وقمّة التفقّه والوعى.

كما أنّ إحياء وتنمية صفة العدالة فى الذات عامل آخر من عوامل الرشد والتكامل الحقيقى. فإذا تمكّن المرء من تنمية هذه الملكة الرائعة فى نفسه وعجن ذاته بها، ونمت فيه شجرتها الضخمه الفارعة، كان لذلك كلُّ الأثر فى صياغة ملكة العدالة عنده، وعليه أن يطمئنّ إذ ذاك إلى أنّه قد خطا خطوة مهمّة وواسعة على صراط الكمال.

ولعلّ اكتساب هذه الصفة والصفات الصالحة الأخرى يتأتّى بواسطة المراس والتمرين وقراءة الأدعية وإحياء ليالى القدر المباركة، والتوجّه الخالص الى الله تعالى عبر قراءة أدعية أبى حمزة الثمالى، والافتتاح، دعاء كميل، فهذه وغيرها تهيّئ الأرضيّة المناسبة واللازمة لغرس جذور الصفات الطيّبة فى ذات وروح الإنسان. وبهذه الممارسات الراقية ترتقى النفس الإنسانيّة إلى مراحل أعلى وأعلى، ذلك

لأنّ العدالة وكذلك سائر الصفات المحمودة الأخرى ذات مراتب مختلفة ونسبية، ولهذا ترى بعض الناس (عادلًا)، بينما غيره (أعدل)، والثالث أصبح (أعدل من ذاك الأعدل).

ولاشكّ أن سعى ابن آدم نحو الإصلاح لا يصحّ أن ينحصر بزمان دون آخر، أى أن تزكية النفس لابدّ أن تشكل مع ذات ابن آدم اندماجاً جوهرياً، مع جدارة الإشارة الى أنّ شهر رمضان المبارك وخصوصاً ليالى القدر، موسم لتركيز المساعى التى لا شكّ فى كونها ستصبح أكثر إثماراً، وقد قال سبحانه وتعالى: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ بمعنى أنّ الفوائد المباشرة وغير المباشرة فى هذه الليلة أفضل فى واقعها وأرقى من العبادة طيلة ألف شهر.

لهذا ينبغى البحث عن أفضل وأحجى وأهمّ الأعمال فى هذه الليلة، أى البحث عن أفضل المقدّمات العبادية الخاصّة بليلة القدر، من قبيل قراءة الدعاء، أو رفع المصاحف على الرؤوس، لإحراز أكبر قدر وأفضل نوع من التمهيدات التى تنتهى إلى صفاء القلوب والتوجّه التام إلى الله تعالى، ليتفضّل بعد ذلك بأحسن التقدير والقضاء والإبرام.

وقد أوصى المتقدّمون من العلماء لمثل هذه الليلة بالقيام بعملين لهما فائدة جمّة.

ذكر الشيخ الصدوق فى كتابه الأمالى، وتبعه فى ذلك العلامة المجلسى فى بحار الأنوار والشيخ عباس القمّى فى مفاتيح الجنان، حيث أوصوا رضوان الله تعالى عليهم بأهميّة بحث القضايا العلمية الإسلامية والخاصّة بأصول وفروع الدين فى هذه الليلة المباركة، ثمّ قال الصدوق: «ومن أحيى هاتين الليلتين بمذاكرة العلم، فهو أفضل».

وطبعاً فإنّ إحياء ليالى القدر ومذاكرة العلوم المفيدة ينبغى أن يكونا بعد القيام بالعبادات التمهيديّة وإحراز وكسب الحالات الروحية.

والعمل الآخر: العبادة الخاصّة التى مارسها السيّد ابن طاووس وأوردها فى كتابه القيّم (إقبال الأعمال)، وبناءً على القطع بتشرّف هذا العالم الجليل بلقاء مولانا بقية الله الأعظم عجل الله تعالى فرجه الشريف، فإنّ من الممكن القول بأنّ هذا النوع من العبادة الخاصّ بليلة القدر المباركة كان موضع تأييد إمام الزمان سلام الله عليه ولكن حيث كان من واجب أصحابه فى زمن الغيبة التكتّم على بعض الحقائق، فإنّه لا دليل على إثبات أمر فى هذا الإطار.

قال السيّد ابن طاووس رحمه الله بخصوص أعمال ليلة القدر:

لقد نظرت فى نفسى وإلى ما يمكن أن يكون الأفضل بين الأعمال فى ليلة القدر، حتى توصّلت إلى أنّ أفضل الأعمال فى هذه الليلة هو: الدعاء للكفار والمشركين وغير المسلمين لينعم الله عليهم بنعمة الهداية.

وعلى هذا الأساس، كان السيّد ابن طاووس يرفع يديه المباركتين بالدعاء ويطلب إلى ربّه المتعال أن يهدى فلاناً المشرك أو فلاناً الكافر أو فلاناً المسيحى أو فلاناً اليهودى إلى دين الإسلام القويم.

ولعلّ هذا الدعاء بحقّ الكفّار يعقبه ثواب أكبر للشخص الداعى من الأدعية بالشفاء أو الغنا لمريضٍ أو فقير، لأنّ مرض الفرد المسلم أو فقره، أمور مؤقتة، ومن الممكن جبرها بالصحّة والثروة فيما بعد، ولكن البقاء فى نيران الكفر والإلحاد الدائمة، ليس أمراً مؤقّتاً ليمكن تجاهله والتغافل عنه.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

پی نوشتها

() رضىّ الدين أبو نصر، الحسن بن الفضل بن الحسن، فقيه محدّث. من كبار علماء القرن السادس الهجرى، ابن أمين الإسلام أبى على الطبرسى صاحب تفسير مجمع البيان. انظر ترجمته فى كتب رجال الشيعة.

() انظر مكارم الأخلاق (ط. دار الشريف الرضى، قم، ۱۴۱۳ ه) ص۴۵۸، الفصل الخامس، فى وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لأبى ذر الغفارى رضى الله عنه.

() أبو الحسن، أو أبو الحسين: مسعود بن أبى فراس عيسى بن أبى النجم بن حمدان بن خولان بن إبراهيم بن مالك الأشتر النخعى جدّ السيد ابن طاووس لأمّه، لقبه: ورّام. له كتاب تنبيه الخاطر ونزهة الناظر ويعرف أيضاً ب مجموعة ورّام. راجع ريحانة الأدب للتبريزى الخيابانى: ج۶، ص۳۱۳ ۳۱۴.

ورّام بن أبى فراس بن ورّام أبى الحسين؛ ذكره ابن طى فى الإماميّة، وبالغ فى = = إطرائه، وذكر له كرامات، لسان الميزان لابن حجر: ج ۶، ص ۲۱۸، رقم ۷۶۳ فى من اسمه ورّام.

() مجموعة ورّام ج۲، ص۵۱.

() يوسف بن أحمد بن إبراهيم الدرازى البحرانى (۱۱۰۷ ۱۱۸۶ه) صاحب كتاب الحدائق الناضرة فى أحكام العترة الطاهرة فقيه محدّث، من معاصرى الوحيد البهبهانى. صلّى البهبهانى على جنازته. وقد دفن فى الحرم الطاهر لسيد الشهداء الإمام الحسين سلام الله عليه.

والكتاب المذكور عبارة عن دورة فقهية نصف استدلالية طبقاً للآيات والروايات تميل إلى المنحى الأخبارى. راجع ريحانة الأدب ج۳، ص ۳۶۰ ۳۶۱؛ الذريعة إلى تصانيف الشيعة للطهرانى: ج۶، ص۲۸۹ ۲۹۰.

() الميرزا حسين بن محمد تقى بن محمد على النورى الطبرسى (۱۲۵۴ ۱۳۲۰ه) المدفون فى الصحن الرضوىّ المقدس. فقيه، محدّث، مفسّر، رجالىّ، من كبار علماء الإماميّة فى مطلع القرن الرابع عشر، وهو من تلامذة الشيخ = = الأعظم مرتضى الأنصارى والملاّ على كنى والمجدّد الشيرازى، ومن مشايخ الأغا بزرك الطهرانى والشيخ عباس القمّى.

وهو صاحب كتاب مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل الذى علاوة على تضمّنه زهاء (۲۳۰۰۰) حديث طبقاً لترتيب أبواب كتاب وسائل الشيعة فإنّه حوى ترجمة عدّة عديدة من علماء الشيعة. راجع الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج۱۱، ص۷ ۸.

() محمد حسن بن باقر عبد الرحيم الشريف الأصفهانى (۱۲۶۶ ه) من كبار علماء الإمامية، ومن تلامذة السيد جواد العاملى صاحب موسوعة مفتاح الكرامة والشيخ جعفر كاشف الغطاء. وقد جاء فى كتابه جواهر الكلام فى شرح شرائع الإسلام على جميع فروع الفقه بالأدلة الدقيقة، حتى قيل: إنّ جواهر الكلام بالنسبة إلى الفقه كنسبة بحار الأنوار إلى الأحاديث. راجع ريحانة الأدب ج۳، ص۳۵۷ ۳۵۸.

() السيد محمد كاظم بن السيد عبد العظيم الطباطبائى (۱۳۴۷ ۱۳۳۷ه) شرع فى طلب العلم على المرحوم ملا محمد إبراهيم الأردكانى والمرحوم الآخوند زين العابدين العقدائى، والسطوح الأعلى على المرحوم الآخوند ملا هادى فى يزد. ثمّ هاجر إلى العراق فأخذ عن الآيات العظام المرحوم الميرزا الشيرازى والشيخ راضى ابن الشيخ محمد الجعفرى (فقيه العراق) وغيرهم. وبعد هجرة الميرزا الشيرازى إلى سامراء، شكّل المرحوم السيد حلقة دراسية وُصفت بأنّها أوسع وأسدّ، وأنفع من أكثر مدارس فقهاء = = عصره، وفضلاء مصره، وبقى فى النجف حتى توفّى فيها. انظر ترجمته فى مقدّمة العروة الوثقى ط. مؤسسة النشر الإسلامى: قم، ج۱، ص۵.

() رضىّ الدين أبو القاسم، علىّ بن موسى بن جعفر (۵۸۹ ۶۶۴ ه) المعروف بالسيد ابن طاووس، فقيه، متكلّم، محدّث، مؤرّخ، أمّه ابنة الشيخ ورّام بن أبى فراس الحلّى. وأمّ أبيه ابنة الشيخ الطوسى. غادر مسقط رأسه الحلّة إلى بغداد بعد سنين من طلب العلم، وأقام فيها خمسة عشر عاماً، ثم عاد إلى الحلّة، ثم إلى النجف وكربلاء وسامرّاء والكاظمين، وعاد إلى بغداد فى أيّام سلطة المغول. وقد عاصر خليفتين من بنى العباس هما المستنصر والمستعصم، وكانت لديه علاقات جيّدة مع المستنصر وعرضت عليه فى زمن المستنصر مسؤوليّات متفاوته إلاـ أنّه لم يقبل أىّ منصب اقتُرح عليه، ولكنّه بذل جهوداً جبّارة لحفظ العراق من دمار المغول. وعُرف عنه القول لهولاكو بأنّ الحاكم الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم الظالم. ثم إنّه قبل نقابة العلويين على كرهٍ إلى آخر عمره الشريف. توفّى فى بغداد ودُفن فى النجف الأشرف. راجع كشف المحجّة بأكمله، ففيه ما يغنى.

() فلاح السائل ص۷۵ فى ذكر صفة القبر.

() أبو القاسم، نجم الدين جعفر بن الحسن بن أبى زكريا يحيى بن الحسن بن سعيد الهذلى الحلّى (۶۷۶ ه) مدفون فى الحلّة فى شارع يحمل اسمه. من مفاخر علماء الإماميّة، هو المحقق على الإطلاق دون ذكر القرينة، وذلك رغم كثرة المحقّقين وفحول العلماء. من معاصرى نصير الدين الطوسى. من تلامذته: السيد محمد رضىّ الدين علىّ بن طاووس، وابن داود، والعلّامة الحلّى ابن أخته. له تصانيف عدّة، من أشهرها: شرائع الإسلام فى مسائل الحلال والحرام؛ المعتبر فى شرح المختصر طبعا مراراً. راجع ريحانة الأدب ج۵، ص ۲۳۱ ۲۳۶.

() جمال الدين، أبو منصور الحسن بن سديد الدين يوسف بن على المطهّر الحلّى (۶۴۸ ۷۲۴ ه) من أعاظم علماء الإماميّة. وقصّة مناظرته مع علماء المذاهب الأربعة فى قضيّة الطلاق عند السلطان محمد خدابنده معروفة، إذ تشيّع هذا الأخير ببركة المناظرة. ولمزيد من التعرّف على ترجمة العلّامة وتصانيفه يراجع كتاب طرائف المقال للبروجردى: ج۲، ص۴۳۴، ترجمة العلّامة الحلّى.

() بهاء الدين محمد بن الحسن بن محمد الأصفهانى (۱۰۶۲ ۱۱۳۵ ه) =

= المدفون فى أصفهان. من أفاضل علماء أواخر العهد الصفوى، لقّب بالفاضل الهندى رغم عدم رغبته فى ذلك، لهجرته أيّام شبابه برفقة والده إلى الهند. من تأليفاته: كشف اللثام عن قواعد الأحكام وهو شرح لكتاب قواعد الأحكام للعلّامة الحلّى. راجع ريحانة الأدب ج۴، ص۲۸۴ ۲۸۵.

() رضا بن محمد هادى الهمدانى (۱۲۵۰ ۱۳۲۲ ه) من فقهاء الإماميّة فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى. من تلامذة المجدّد الشيرازى. راجع ريحانة الأدب ج۶، ص۳۷۷.

() عين الحياة ص۱۹.

() هو ظالم بن عمرو يكنّى أبا الأسود الدؤلى الذى أنشأ الأعلم النحو بوصية من = = أمير المؤمنين سلام الله عليه لما كان من فساد المولّدين فقال سلام الله عليه له: فاجمع فى علم الإعراب شيئاً. انظر الأنساب للسمعانى: ج۵، ص۴۶۷، مادّة النجوى.

ولقد كتب سيرة هذه الشخصية العملاقة أُمّهات الكتب فى التاريخ والسير والتراجم لعموم المسلمين، بالإسهاب تارة والإيجاز أخرى؛ نظراً لما لهذه الشخصية من تاريخ مشرّف. امالى الصدوق المجلس۷۳، ص۴۷۹ والكلينى فى الروضة مؤاخاة الأنصار والمهاجرين.

() مكارم الأخلاق ص۴۵۸، الفصل الخامس، فى وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لأبى ذر الغفارى رضوان الله تعالى عليه.

() جندب بن جنادة أبو ذر الغفارى، يقال: جندب الخير، له صحبة. كنيته: أبو عبد الله. هو أحد الأركان الأربعة سلمان والمقداد وعمّار وهو رابعهم، وقيل فى اسمه واسم أبيه غير ذاك، إلّا أنّ المشهور به هو ما قدّمناه (جندب بن جنادة). زاهد، صادق اللهجة، مات فى زمن عثمان بعد ما نفاه إلى الربذة حتى قضى وحيداً غريباً، فقام بغسله ودفنه جماعة من العراق بمعيّة مالك الأشتر. انظر: رجال الطوسى ص۳۲ باب الجيم؛ نقد الرجال للتفرشى: ج۱، ص۲۷۳ رقم ۱۰۶۱/۳.

() أكرم به: من أفعال التعجّب، ويستخدم فى مقام التعظيم.

() أورد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كلمة (منّا) على سبيل المجاز احتراماً وتقديراً لعظيم منزلة أبى ذر واقترابه الشديد من مصداق الحقّ الأساس وهم أهل البيت الأربعة عشر، وهم الذين حصرتهم الآية القرآنيّة الشريفة القائلة: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً فهو منهم مجازاً ومن باب التوسعة للمعنى، دون أن يكون منهم على سبيل المصداق الحقيقى والواقعى.

() ورد فى كتب البلاغة أن الإنسان إذا ما كان له تعلّق بشخص، فله أن يعبّر عن ذلك بتكرار اسمه ومناداته كراراً.

() أبو الحسن على بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّى، توفى عام (۳۲۹ أو ۳۲۸) من علماء الإماميّة فى فترة الغيبة الصغرى، مدفون فى قم المقدّسة. كان والده ممّن رأى وصاحَب الإمام الحسن بن على العسكرى عليهما الصلاة والسلام. ولعظيم وثاقته صرّح الشهيد الأوّل والشيخ البهائى والعديد من العلماء الفطاحل بأن فتاواه بمنزلة نصّ المعصوم لدى علماء الإماميّة. راجع ريحانة الأدب ج۷،

ص ۴۰۱ ۴۰۲.

() سورة الأنفال، الآية: ۴۲.

() أى ضعفان من الأجر والثواب.

() عن أمير المؤمنين سلام الله عليه: لقاء أهل المعرفة عمارة القلوب ومستفاد الحكمة.

وروى أيضاً: زاحموا العلماء فى مجالسهم ولو جثواً على الركب. تحف العقول ص۳۹۳.

() بحار الأنوار ج۸۵، ص۲۲۶.

() سورة الذاريات، الآية: ۵۶.

() علل الشرائع ج۱، ص۲۰.

() علل الشرائع ج۲، باب الصبر، ص۸۷.

() نهج البلاغة ج۱، ص۱۴، الخطبة الأولى.

() سورة العنكبوت، الآية: ۴۵.

() التهذيب ج۳، ص۱۰۸ (دعاء الإفتتاح الخاص بشهر رمضان المبارك).

() نفس المصدر.

() لاشكّ أنه لا ينبغى الاقتصار على هـذا التقسيم واعتباره تقسيماً نهائياً، ذلك لأنّ ثمّـة أقساماً ومراتب عبادية أخرى يمكن تصوّرها وتحديدها.

() مستدرك الوسائل ج۳، ص۱۰۹. باب جواز الصلاة فى أول الوقت.

() بحار الأنوار ج۶۷، ص۱۸۶.

() محاسبة النفس للكفعمى: ص۱۶۹.

() سورة النساء، الآية: ۱۵۰.

() سورة النساء، الآية: ۱۵۱.

() بحار الأنوار ج۷۸، ص۱۷۰، باب: فضل العافية والمرض.

() المصدر نفسه.

() مغنى اللبيب ج۲، ص۳۹۳.

() أمالى الصدوق ص۶۳۳، المجلس الثانى والتسعون.

() بحار الأنوار ج۱۶، ص۲۲۵، باب۹، مكارم أخلاقه وسيره وسننه.

() مكارم الأخلاق ص۲۴.

() الكافى ج۲، ص۴۴۰، ح۲.

() اللهوف فى قتلى الطفوف ص۱۹۳.

() سورة النساء، الآية: ۴۰.

() التهذيب ج۶، ص۳۳۸، باب المكاسب.

() الحدائق الناضرة للمحقق البحرانى: ج۱۸، ص۱۱۹.

() المصير: النهاية، المحل الذى ينتهى عنده مسير المياه.

() بحار الأنوار ج۶، ص۲۷۵، باب۸، أحوال البرزخ والقبر وعذابه.

() السيّد حسين القمّى بن محمود الطباطبائى القمّى الحائرى، أحد مراجع التقليد فى عصره، ولد سنة (١٢٨٢ ه) درس فى طهران ثم سامراء على الميرزا الشيرازى الكبير، ثم عاد إلى طهران وتتلمذ على الميرزا محمد حسن الآشتيانى، ثم هاجر إلى النجف الأشرف حيث آلت إليه المرجعيّة الدينيّة بعد = = المرحوم السيّد أبى الحسن الأصفهانى، حتى توفّى سنة (١٣۶۶ ه).

() آية الله السيّد محمد هادى الميلانى التبريزى، أحد أكبر مراجع الشيعة، كان مقيماً فى مدينة مشهد المقدّسة، وتوفى فيها سنة (١٣٩۵ ه) كان رحمه الله مشهوراً بحدّة الفهم وقوّة الذاكرة.

() الميرزا الأصفهانى، هو أحد مؤسّسى مدرسة التفكيك، درس أوّلاً فى النجف الأشرف ثم اشتغل بالتدريس فيها، ثم سافر إلى مشهد المقدّسة، ليقيم فيها ويعلن مخالفته الشديدة للفلسفة حتى سرى ذلك إلى كيان الحوزة العلمية فى مشهد المقدّسة إلى يومنا هذا.

() أنظر أمالى الصدوق ص۴٠٩، ح١١، المجلس۵٣.

() العثرة: السقطة المفاجئة، ويقال للحرب والجهاد عثرة، لكثرة السقوط. (المنجد مادّة: ع ث ر)

() الصرعة: السقطة القاتلة التى لا قيام منها.

() ولّاه الحاكم الأمويّ عبد الملك بن مروان مكّة والمدينة والطائف والعراقَين البصرة والكوفة أسّس مدينة واسط، شرق الكوفة عند دجلة، وكان باتفاق المؤرّخين طاغية دموياً يضرب به المثل. كما كان عدوّاً لأتباع أهل = = البيت سلام الله عليهم وقتل منهم ما لا يحصى. الأعلام للزركلى: ج٢، ص١۶٨.

() مدينة المعاجز للبحرانى ج۵ ص٣٠٧ ح۶۵ الباب۶، من معاجز الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد سلام الله عليهما.

() يبعث على النسيان.

() الدجّال بمعنى الكذّاب، وأصل الكلمة سريانى (أزجل) وعُرّبت فأصبحت: دجّال.

() الفقر غالباً ما يؤدّى إلى ضيق الصدر، ونسيان المرء لنفسه ولواجباته. ومن هنا عبّر عنه صلى الله عليه وآله بكون الفقر منسياً، أو أن بالفقر يُنسى الفقير، إذ عادة ما يكون الفقير منسيّاً فى الوسط الاجتماعى، فتراه يعجز عن تقديم الخير لهم، بعد أن فقد العلاقة الطبيعية معهم.

() شَحَّ بالشيء: بخل به ومنعه.

() الصحيح من السيرة للعاملى: ج٣، ص٣٣، من أهداف الإسراء والمعراج.

() الطرائف لابن طاووس: ص۵٠۵.

() السفسطائيون: جماعة ظهرت فى اليونان من أهل الرأى فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، ولم يكن همّهم إماطة اللثام عن الحقائق بقدر اهتمامهم على تعليم تلامذتهم فنّ من الجدل والمناظرة، ليتمكّنوا فى مختلف المواقع والحالات ولاسيّما فى الحوارات السياسية من التغلّب على خصومهم، بعيداً عن كونهم على صواب أو على خطأ.

() إقبال الأعمال ص۶٣٧.

() وسائل الشيعة ج١٢، ص٨، باب وجوب عشرة الناس حتى العامة.

()، وقال صلّى الله عليه وآله: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن». التهذيب ج۶، ص١٣۶، باب أصناف من يجب جهاده.

() الكنى والالقاب للشيخ عباس القمّى: ج٣، ص ١۴۴.

() إنّ مفردة (ظن) تعتبر من الأضداد فى اللغة. ورغم أنّ الظنّ من حيث المعنى يخالف اليقين، إلا أنّه فى هذه الجملة قد يعطى معنى اليقين، أى أنّ عمر كان يقصد القول بأنّ الإمام سكران على وجه اليقين، والعياذ بالله.

() انظر الکافی ج۱، ص۴۹۶، باب مولد أبی جعفر محمد بن علی.

() وقد نقل أنّ المرحوم الشیخ الأنصاری أورد العبارة المذکورة فی معرض إجابته علی قول أحدهم: أن یکون المرء عالماً فذاک أمر مشکل، وأن یکون المرء إنساناً فذاک من المحال، فأکّد الشیخ بأنّ هذا الرأی یجانب الصواب، بدلیل أنّ کثیراً من الناس قد حقّقوا معنی الإنسانیّة فی أنفسهم، فإن کان هذا الأمر محالاً، فکیف تسنّی لهم ذلک؟

() لاشکّ أنّ الأنبیاء والأئمّة سلام الله علیهم مستثنون من هذه القاعدة، وهم خارجون تخصّصاً، لأنّهم یرتبطون بالعلم الإلهی مباشرة.

() سورة آل عمران، الآیة: ۱۶۴.

() إقبال الأعمال ص۶۵۷.

() سورة آل عمران، الآیة: ۱۵۹.

() نهج البلاغة الکلمة۳۳۳، ص۵۳۳.

() مجموعة ورّام ج۱، ص۸۹.

() انظر: تفسیر مجمع البیان للطبرسی: ج۵، ص۳۳، تفسیر سورة التوبة، الآیة ۲۶.

() انظر: الخرائج والجرائح للراوندی: ج۱، ص۱۶۲، ح۲۵۲.

() الکافی ج۸، ص۱۲۷.

() سورة النساء، الآیة: ۱۶۵.

() البرنس: قلنسوة طویلة، وکان النسّاک یلبسونها فی صدر الإسلام. لسان العرب لأبن منظور: ج۶، ص۲۶، «مادّة برنس».

() الکافی ج۲، ص۳۱۴، ح۸.

() لا یحکم بالفسق لارتکاب أیّ ذنب کان، ولکن یقال فاسق لمن یتعمّد عدم الاهتمام بأحکام دینه.

() بحار الأنوار ج۹۶، ص۳۱۶.

() سورة طه، الآیة: ۷.

() تحف العقول ص۳۰۱، وصیّته علیه السلام لعبد الله بن جندب.

() سورة الرعد، الآیة: ۳۱.

() بحار الأنوار ج۹۳، ص۳۵۶، باب۴۶.

() للحبس حدود، والحبس هنا بمعنی عجز الشیطان عن قصدنا، إن لم تقصده النفس والشهوة، وإلا فهو عاجز عن القیام بأیّ عمل. فالإنسان بذاته هو الذی یرتکب المعصیة فی شهر رمضان وغیره بسبب غلبة الشهوة والنفس الأمّارة بالسوء.

() الخصال ص۲۰۹، ح۳۱.

() إنّ القول بنوع هذا الوحی أمر جدیر بالتحقیق، أکان وحیاً خاصّة بهذا العابد، أم هو نوع الوحی الطبیعی الذی کان یحدث فی فترات ما قبل الإسلام.

() الکافی ج۲، ص۷۳، ح۳، باب الاعتراف بالتقصیر.

() وسائل الشیعة الحر العاملی: ج۱، ص۸.

() سورة ابراهیم، الآیة: ۳۴.

() الکافی ج۲، ص۴۲۹، ح۴، باب من یهمّ بالحسنة أو السیئة.

() سورة هود، الآیة: ۱۱۴.

() لقد رأی زملاء الشیخ الأنصاری رحمه الله إمام الزمان عجل الله تعالی فرجه الشریف جالساً إلی جانب الشیخ، ولکنّهم لم یتعرفوا

إليه بـادئ الأمـر، ثمّ حينمـا أمرهم بأن يتعاملوا كتعامل الشـيخ الأنصارى، وأنه هو الـذى سيبادر إلى زيارتهم ... لم يتنبهوا إلى حقيقة القصد من هذا الوعد وشخص الإمام، إلا بعد مغادرته دكّان الشيخ وافتقادهم إياه، رغم أنّهم قد خرجوا للبحث عنه...

() بحار الأنوار ج۸، ص۲۸۴.

() الوصيّة من العقود الجائزة ولاـ تنضوى تحت قاعدة (أوفوا بـالعقود)، لاسيّما كون الموصـى على قيـد الحياة، أى أنّ للفرد أن يغيّر وصيّته مراراً.

() بحار الأنوار ج۲، ص۸۹، باب۱۴: من يجوز أخذ العلم منه.

() أبو بحر، أبو القاسم، الحسين بن روح، من متكلّمى الشيعة فى العهد العباسـى، ينسب له كتاب التأديب وهو ثالث النواب الخاصّين للإمام المهدى عجل الله فرجه الشـريف فى زمن الغيبة الصـغرى. وقد اتّهمه العباسيون بالتعاون مع القرامطة وسجنوه طيلة الأعوام (۳۱۲ ۳۱۷ ه) وتوفّى فى بغداد عام (۳۲۶ ه). راجع ريحانة الأدب للتبريزى: ج۲، ص۳۳۷ ۳۳۸.

() أبو جعفر، محمـد بن على المعروف بابن أبى العزاقر، من أهل شـلمغان من قرى واسط، توفّى سـنة (۳۲۲ ه). كان مرجعاً للشـيعة فى بادئ الأمر، ولكنّه أعلن معارضـته لنيابـة الحسـين بن روح، وكان ذلک بين أعوام (۳۰۴ ۳۱۱ ه) واستمرّ على تلک الحال حتى ادعى النبوّة والألوهيّـة. سافر إلى بغـداد والموصل وجمع له مؤيّـدين، سـمّوا فيما بعـد بالعزاقريّة أو الشـلمغانيّة. أعدم الشـلمغانى بأمر الحاكم العباسى، ثمّ صلب جسده وأحرق. راجع ريحانة الأدب ج۳، ص۲۳۵ ۲۳۶.

() (الشياطين مغلولة): أمالى الصدوق ص۹۳، المجلس العشرون.

() عيون أخبار الرضا سلام الله عليه للصدوق: ج۲، ص۲۶۶، ح۵۳.

() الخصال الصدوق ص۱۱۳ ح۹۱.

() أبو الحسن، على بن إبراهيم بن هاشم القمى، من علماء ومحـدّثى الإماميّـة، ومن مشايـخ الكلينى فى الحديث، وقد روى عنه الشـيخ الصدوق بواسطة أحمد بن على ولده من تصانيفه: اختيار القرآن؛ الأنبياء؛ التفسير؛ التوحيد والشرک؛ المناقب؛ قرب الإسناد. توفى سنة (۳۰۷ ه). راجع ريحانة الأدب ج۴، ص۴۸۸.

() أبو جعفر، محمد بن يعقوب بن اسحق الكلينى الرازى، المعروف بثقة الإسلام، توفى سنة (۳۲۹ ه) من أهالى كلين؛ قرية قرب حسن آبـاد من توابع الرّى حيث مـدفن أبيه فيهـا ومورد اهتمـام المؤمنين وزيارتهم. هو رأس المحـدّثين الإماميّـة، ثقـة عـدل ثبت، وهو أحد المحمّـدين الثلاثـة ومؤلف كتـاب الكافى من كتب الشـيعة الأربعـة، ويعـدّ الكلينى أوّل محـدّث إمامى اهتمّ = = واختصّ بجمع ونظم وتبويب الروايات والأحاديث الدينيّة الشريفة. راجع ريحانة الأدب ج۵، ص۷۰ ۸۲.

() الشـيخ مرتضـى الأنصارى، قمّة رفيعة فى الفقه والزهد والتقوى، ولد فى يوم عيد الغدير سنة (۱۲۱۴ ه) فى مدينة دزفول. بدت عليه ملامـح النبوغ والعبقريـة منـذ نعومـة أظفاره. هاجر إلى العراق حيث العتبات المقدسة كان عمره آنئذ ثمانية عشـر عاماً لطلب العلم، ثمّ توجّه لزيارة مرقد الإمام على الرضا سـلام الله عليه فى خراسان عام (۱۲۴۰ ه) ومكث فيها ست سنين. وتتلمذ فى مدن مشهد وإصفهان وكاشـان ويزد على الحكيم الربّانى الملاّ هـادى السبزوارى والملاّـ أحمـد النراقى. ثم عاد إلى النجف الأشـرف عام (۱۲۴۹ ه) حيث أصبح المرجع الأعلى فى النجف الأشرف لمدة خمسة عشر عاماً.

وقيـل إنّ السـلطان العثمـانى سأل واليه فى العراق عن أحوال الشـيخ الأنصارى، فأجابه قائلاً: والله، هو الفاروق الأعظم ... بينما نقل عن السفير البريطانى فى العراق أنّه قال: والله إنّه الشيخ الأنصارى إما أن يكون السيد المسيح أو أحد حوارييه.

توفّى الشـيخ الأعظم وأوحـد زمانه فى ليلة الثامن عشـر من جمادى الثانية عام (۱۲۸۱ ه) والتحق بـالرفيق الأـعلى ودُفن إلى جوار مرقد مولانا ومولاه الإمام على سـلام الله عليه. راجع (زندگانى وشخصـيت شـيخ أنصارى وآشنايى با متون درسى حوزه¬هاى علميه ايران: شيعة، شافعى، حنفى بالفارسية ص۲۲۶).

() سورة آل عمران، الآیة: ۹۷.

() الکافی ج۲، ص۶۹، ح۸.

() تجدها فی شرح نهج البلاغة لإبن أبی الحدید: ج۱۱، ص۱۴۵، خطبة رقم ۲۱۶.

() أبو الحسن، محمد بن الحسین بن موسی الرضی العلوی الحسینی الموسوی، = = المشهور بالسید والشریف الرضی (۳۵۹ ۴۰۶ ه) أدیب وشاعر وفقیه ونابغة زمانه، هو أخو السید المرتضی علم الهدی. قالوا عنه فی (یتیمة الدهر) للثعالبی و(رجال الکشی) إنّه یعود فی النسب إلی الإمام موسی بن جعفر سلام الله علیهما. وعرف علی أنّه أنبه شعراء العرب، ویصفه أرباب التراجم بأنّه نابغة زمانه، له تصانیف عدّة، ولکن (نهج البلاغة) أشهرها علی الاطلاق.

() عزّ الدین أبو حامد، عبد الحمید بن هبة الله بن محمد بن الحسین بن أبی الحدید، (۵۸۶ ۶۵۶ ه) أدیب ومؤرّخ وفقیه ومن کبار المعتزلة، ورغم أنّه شافعی فی الفروع ومعتزلی فی الأصول، إلا أنه یعتبر من محبّی أهل البیت سلام الله علیهم ومقرّاً بأحقیّة الإمام علی سلام الله علیه. وقد نسب بعضهم نسبته إلی أهل السنّة کنسبة عمر بن عبد العزیز إلی الأمویین. طبعت موسوعته (شرح نهج البلاغة) مراراً فی مصر وإیران ولبنان والعدید من البلاد الإسلامیّة. کان إبان حیاته مورد عنایة ابن العلقمی، روی عنه العلامة الحلی بطریق أبیه؛ سدید الدین یوسف، راجع ریحانة الأدب ج۷، ص۳۳۳ ۳۳۶؛ أعلام الزرکلی ج۳، ص۲۸۹.

() راجع شرح نهج البلاغة ج۱۱، ص۱۵۳، ضمن شرح الخطبة رقم ۲۱۶.

() شرح نهج البلاغة ج۱۱، ص۱۵۳، ضمن شرح الخطبة رقم ۲۱۶.

() سورة التکاثر، الآیة: ۱۲.

() نهج البلاغة الخطبة رقم۲۱۲.

() عباس بن محمد رضا بن أبی القاسم القمّی؛ المحدّث الإمامی، ولد فی مدینة قم المقدّسة وتعلّم فیها العلوم الحوزویّة. قصد النجف الأشرف سنة (۱۳۱۶ه) ولازم فیها الحاج المیرزا حسین النوری ودرس علیه الفقه والأصول والتفسیر والحدیث والکلام، وأجازه، وعاد إلی قم عند وفاة المیرزا سنة (۱۳۲۰ ه) وانشغل بالتألیف والتحقیق. وله: مفاتیح الجنان وسفینة البحار؛ ومدینة الحکم والآثار؛ ومنازل الآخرة؛ ومنتهی الآمال فی مصائب النبی والآل؛ وتصانیف أخری. راجع ریحانة الأدب ج۴، ص۴۸۷ ۴۸۸.

() الملا ـ عباس التربتی، ولد سنة (۱۲۵۱ ه) فی قریة کاریزک من نواحی تربت حیدریة (فی محافظة خراسان). کان عالماً صالحاً وصاحب مقام علمیّ وعملیّ، قضی حیاته فی قمّة الزهد والتقوی حتی توفی عام (۱۳۲۲ ه).

() حسین علی الراشد. ولد عام (۱۲۸۴ ه) فی مدینة تربت حیدریّة فی قریة کاریزک فی أسرة روحانیّة. یمّم شطر مدینة مشهد المقدّسة مع والده لمواصلة = = دراسته الدینیة عام (۱۳۰۰ ه) وتتلمذ علی الأدیب النیشابوری والحاج الشیخ محمد النهاوندی والحاج حسین القمی. کانت خطابته الأولی فی مدینة شیراز. فسبق جمیع زملائه الخطباء المنبریین فی مدّة حیاته. ثمّ سافر إلی طهران حیث انشغل بالتألیف والوعظ والإرشاد، حتی منع من ارتقاء المنبر سنة (۱۳۲۰ ه ش) وتوفی سنة (۱۳۵۸ ه ش) عن عمر یناهز الخامسة والسبعین بعد إصابته بسکتة دماغیّة.

() أحد مساجد الروضة الرضویة المقدّسة.

() بحار الأنوار ج۵، ص۳۰۳، باب: مَنْ رُفع عنه القلم، ح۱۳.

() الکافی ج۲، ص۲۸۷، باب الاستغفار من الذنوب.

() دیوان الإمام علی سلام الله علیه ص۲۱۰.

() روی فی بحار الأنوار أنّ رجلاً ـ قصد النبی صلی الله علیه وآله لیعلّمه مبادئ الإسلام، فأحاله النبی صلّی الله علیه وآله علی أحد أصحابه لیعلّمه القرآن، = = فکان أوّل ما علّمه سورة الزلزلة المبارکة، وحینما بلغ قوله تعالی: فمن یعمل مثقال ذرّة خیراً یره، ومن

یعمل مثقال ذرّة شرّاً یره قال الرجل: یکفینی، وقام مغادراً، فقیل له: بقی الکثیر ممّا تتعلّمه، فقال: لقد تعلّمت ما جئت لأتعلّمه واتضحت لی الحقیقة. فقال النبی الأکرم یصف هذا الرجل الذی استوعب فی لحظة واحدة ما کان یتوقع أن یستغرق تعلّمه سنین: «انصرف الرجل وهو فقیه». بحار الأنوار ج۸۹، ص۱۰۷، باب: فصل التدبر فی القرآن.

() سورة القدر، الآیة: ۳.

() أمالی الصدوق ص۶۴۹، المجلس الثالث والتسعون.

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ ُبنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – "رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللّهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللّهُ تعالی؛ و اللّهُ ولیّ التوفیق.